
روايات مصرية للجيب
60
ما وراء الطبيعة
المُتحف الأسود
Looloo
www.dvd4arab.com
عدد خاص
د. أحمد خالد توفيق

مقدمة المقدمة

لمن لم يلحظوا أن هـذه حلقـة رعب .. أقولها بصراحـة ووضوح وصدق : هذه حلقة رعب ..

ولمـن يتسـاءلون عن معنـى (المتحف الأسـود) أقـول بصراحة ووضوح وصدق : هناك متحف فى هـذه القصـة .. ويبدو أنه أسود ..

ولمن لا يعرفون أننى (رفعت إسماعيل) أستاذ أمراض الدم المسن ، أؤكد هذا بلا تردد ..

قدمت لكم عددًا من حلقات الرعـب مـن قبـل .. ذات مـرة جلسنا فى الإسكندرية عـاجزين عن العودة إلـى القـاهرة ، وراح كل منـا يحكـى عن خبراتـه مـع طـراز معيـن مـن الرعب .. فى مرة جربنا طالعنا مع أوراق التاروت ، وكـانت نبوءاتـه كلها ممـا تتقلص لـه الأحشـاء .. فـى حلقـة رعب أخرى قمت بإذاعة بضع حلقات من برنـامج (بعد منتصف الليل) الذى يحكى فيه المستمعون عن خبراتهم المخيفـة .. ثمة حلقة تحدث فيها كل منا عن خبرته مع باب مغلق يكمن وراءه ما يخيف .. وآخـر حلقاتنـا كـانت مـع جـانب النجوم ، حيث تنتظر المسوخ كى تحكم علينا .. أينا الأكثر شرًا ..

إنه ذلك الأسلوب الذى أحكى فيه قصصًا قصيرة كحبات فى عقد قصة أكبر تربط بينها جميعًا .. ولعل أقدم المحاولات فى هذا الصدد كانت (ألف ليلة وليلة) وقصص (الديكاميرون Decamerone) للإيطالى (بوكاتشيو Boccaccio) .. وفيما بعد اكتسب هذا النوع من القصص ـ كالعادة ـ مصطلحًا مرعبًا هو (بورتامنتو Portamento) ، وهو مصطلح موسيقى أصلاً .. هناك شركة بريطانية اسمها (أميكوس) تخصصت فى هذا الطراز من أفلام الرعب .. و ....

لماذا أقول هذا الكلام الفارغ ؟

لا أدرى .. يبدو أننى لن أتخلص من هذه العادة الذميمة : أن أذكر ما أعرفه حين توجد مناسبة لذلك ..

على كل حال هذه هى حلقة (البورتامنتو) الـ .. معذرة .. حلقة الرعب السادسة ..

ماذا جرى فيها ؟ من كان ضيوفها ؟

أحسب أن الأمر صار واضحًا الآن .. فما دام هناك متحف أسود فالقصة لا تحتاج إلى شرح أكثر ..

هل جاء الجميع ؟

جميل .. جميل .. لقد ازداد عددكم ثلاثة أو أربعة ، لكن

هناك وجهًا أفتقده .. أين هو ؟ آه ! ها هو ذا .. أفسحوا له من فضلكم .. إنه صغير الحجم ولن يسمع أو يرى شيئًا وسط هؤلاء العمالقة الجالسين فى الصف الأول ..

وأنت كم سنك يا بنى ؟ عشرة أعوام ؟ لا أعرف إن كان ما سأقصه الآن مما يناسبك .. ستقول لى إنه كذلك ، ولسوف تضحك ملء شدقيك .. وبعد انتهاء القصة ستعلن فى فخر أنها غير قادرة على إخافة قط صغير .. أعرف هذا .. أصدقه .. لكنك ستعود لدارك وتخلو بنفسك .. عندها تفكر : مضحك هذا العجوز .. ولكن .. كم يكون مخيفًا لو حدث بالفعل أن ..

ثم تفكر قليلاً .. تقرر أن تبقى إضاءة الغرفة فترة أطول قبل النوم .. إن القط الصغير لا يملك خيالاً .. أما أنت فتملك .. أنا لا أتحدث عنك بالذات .. لم أقصد أن أهينك .. فقط قلت إننى أفترض ..

حسن ؟ تريد البقاء ؟ ليكن ..

والآن نبدأ حلقة الرعب السادسة ، فأصغوا إلى ..

* * *

مقدمة

إنه الخريف أخيرًا ..

أنا أعشق هذا الفصل بحق ، وأعتبره أجمل فصول السنة فى مصر .. لو أنصف (فريد الأطرش) لغنى : « وآدى الخريف عاد من تانى » .. احتفظ أنت بربيعك بعواصف خماسينه ، والرمد الحبيبى الذى يحرق عينيك ، وجو الامتحانات المخيف الذى لايعنينى فى شىء . لكنه يسمم الجو بما يكفى بحيث تتقلص أمعاؤك كلما فتحت الشرفة ؛ لترى ذلك الطالب يقف بالفانلة الداخلية فى الشرفة ، ممسكًا بكتاب عملاق وهو يحك رأسه محاولاً إيصال بعض الدم إلى مخه المكدود .. انظر لليمين لترى جارتك الشابة تجلس على الأرض فى الشرفة ، منكوشة الشعر مثل (ميدوسا) وهى لاتنفك تحملق فى الأفق محاولة تذكر مساحة (كورستاريكا) .. أضف لهذا أغنية (شادية) « الشمس بانت من بعيد » .. خارجة من المذياع ليكتمل الجو الجدير بأفلام الرعب ..

لا من فضلك .. إن عندى ألف سبب لأكره الربيع .. أما عن الصيف فلا تعليق .. الشتاء يمكن أن يكون محببًا لو لم تكن تمطر طينًا فى كثير من الأحيان ، ولو كانت عظامى تتحمله ..

إنه الخريف .. الفصل العذب الراقى الذى لايلبس (المايوه) ولا يعطس فى وجهك ، ولا يتنهد وهو يقطف الورد من المرج ..

كنت جالسًا فى الشرفة بعد الفجر بقليل أتحسس لذعة برد محببة ، وأرشف الشاى ، وأتسلى بقراءة خطاباتى ..

تلك المجموعة المعتادة من الخطابات التى تهددنى بخراب بيتى ، أو تلومنى على شىء لا أذكر أننى فعلته ، أو تطلب أشياء يستحيل أن أفى بها .. ثمة خطاب من (ماجى) أبقيته إلى النهاية طبعًا .. ثمة خطاب من ابن خالى فى (المنصورة) .. خطاب من شخص يهددنى بأن يفضحنى لأن عنده الوثائق كلها .. طبعًا لا أعرف حرفًا عن الموضوع ، ومن حقه أن يفضحنى لكننى أرجو أولاً أن يشبع فضولى ..

ثم كان الخطاب ..

كان مقتضبًا إلى حد كبير ، لكنه أثار اهتمامى .. وكان مكتوبًا بالعربية بخط أنيق نضيد يذكرك بالأسنان فى إعلانات معجون الأسنان .. يقول :

> **عزيزى د . إسماعيل :**
>
> « أعرف أنك رأيت الكثير .. وما زال أمامك الكثير لتراه .. يقولون إن المال يجلب المال .. وأنا أعتقد أن الرعب يجلب الرعب كذلك .. ما أطلبه هو زيارة منك لدارى المتواضعة للقاء .. ولسوف تشرح الأمور نفسها ، لأنى أمقت المقدمات .. »

وفى نهاية الخطاب كان هناك اسم (مازن أبو يوسف) مطبوعًا وليس بخط اليد وتحته توقيع أنيق يصلح شعارًا لأسرة من نبلاء القرون الوسطى .. وكان هناك رقم هاتف يبدو أنه من الإسكندرية ..

طبعًا لا يحمل الخطاب أى وعد ولا يقول أية تفاصيل .. هذا بالضبط هو المثير فيه .. أذكر منذ سنوات أن أمريكيًا نشر فى الصحف كلها يقول : « إنها فرصتك الأخيرة .. أرسل دولارًا إلى العنوان التالى .. »

هذا الإعلان لم يتضمن أى وعد من أى نوع ، لهذا أرسل كل الناس تقريبًا دولاراتهم إلى العنوان المذكور ، فلابد أن هذا العبقرى الخبير بعلم النفس قد صار مليونيرًا !

هكذا وضعت الخطابات جانبًا .. وانتظرت حتى يأتى وقت مناسب للاتصال .. أعتقد أنه العاشرة صباحًا .. وطلبت الرقم المذكور ..

جاءنى صوت (مازن) وقورًا هادئًا يتساءل عمن هنالك ، فأخبرته .. قال فى سرور حقيقى :

ـ « سعيد باستجابتك هذه .. »

ـ « أنا أحب الأشخاص الذين لا يعدون بشىء .. »

ـ « وأنا أحب الأشخاص الذين لا ينتظرون وعدًا .. »

ـ « فقط أطلب وعدًا بأن الموضوع ليس تافهًا .. أنت تفهم هذه الأمور .. »

ـ « أعدك بأن الموضوع ليس تافهًا .. »

ـ « هناك من يطلبون منى أن أذهب إليهم للأهمية ، ثم يتضح أنهم يريدون معرفة رأيى فى دواء الإمساك الذى يأخذونه على الريق ، أو حيرتهم فى الاختيار ما بين ابنة خالتهم الجميلة لكنها بلهاء قليلاً .. وزميلة الدراسة المتزنة لكنها قبيحة كالأبالسة .. »

ضحك طويلاً ثم قال :

ـ « لا شىء من هذا .. اطمئن .. أنا لا أعانى الإمساك وأكبر سنًا من العواطف .. »

كان التفاهم ممتازًا كما ترى ، وهكذا حصلت منه على عنوان داره .. إنها فى الإسكندرية كما قلت لك ، لكنى لن أذكر تفاصيل أكثر من فضلك .. لا داعى لأن أقول كذلك إن اسم الرجل وهمى ..

اتفقنا على يوم الخميس فى السادسة مساءً ، وهكذا عادت حياتى لانتظامها ..

لماذا قبلت ؟ لا أعرف كالعادة .. هناك هذا الخليط من الفضول والشعور بالوحدة والرغبة فى جمع الخبرات الجديدة كدأبى .. دعك من حدسى الخاص الذى قال لى إن هذا الرجل ليس أحمق .

أما السبب الأكبر والأهم فهو أننى لم أر الإسكندرية منذ فترة ، وأنا مغرم بالإسكندرية فى الخريف والشتاء كما تعرفون ..

★ ★ ★

فى السادسة مساءً دققت الجرس ..

هل وصفت لكم المكان ؟ لا ؟ حسن .. الأمر هو البساطة ذاتها .. فيلا أنيقة من طابقين . لها طابع فيلات الستينات الذى لا تخطئه العين ، ومن الواضح أنها حديثة البناء .. ذوقها راق بلا شك .. وذلك الحرص الموسوس على استخدام اللون الأبيض فى كل شىء .. إنها تذكرنى بفيلا الدكتور (سامى) إلى حد ما مع فارق هائل فى الثراء طبعًا .. إن د . (سامى) يربح الكثير كما هو واضح ..

يجب أن أذكر هنا أنه لا يوجد بواب ولا حراسة .. أنت تدخل بحريتك كأى لص عبر البوابة المفتوحة ، لأنه لا أحد يجيب على الجرس .. تمشى فى ممر طويل مرصوف بحجر الإسكافى بين أنواع من الأزهار يؤسفنى أننى لا أعرف ما هى .. إن الأزهار بالنسبة لى حمراء وصفراء وبيضاء .. برائحة أو بلا رائحة .. لا بد أن لها اسمًا مثل (الدالكونيا) أو شىء من هذا القبيل ..

وفجأة رأيته أمامى ..

أسود اللون .. يتطاير الشرر من عينيه .. يكشر عن أنيابه بينما انتصبت شعيراته كلها .. وهو يقف تلك الوقفة

التى تباعد بين السيقان قليلاً ليكسب مساحة ارتكاز أكبر ، كما يفعل أى لاعب (جيدو) محترف قبل المواجهة ..

لا يهز ذيله القصير .. ذيله ؟ طبعًا .. إننى أتكلم عن كلب طبعًا .. حسبت هذا واضحًا ..

كلب (دوبرمان) شرس المظهر يذكرك برجال العصابات .. يقف فى الممر منذرًا بالويل .. عندما تكف الكلاب عن هز ذيولها وتصدر ذلك الزئير المكتوم ، تكون لحظة المواجهة قريبة جدًّا ..

تصلبت حيث أنا وقلت له وأنا أتراجع خطوة للوراء حتى انغرست قدمى فى حوض (الدالكونيا) :

ـ « اهدأ يا أحمق .. أنا لست عدوًّا .. اهدأ .. »

ـ « ونظرت للأرض كى لا أستفزه .. لكنه واصل التحرش .. لا مفر من هنا وعلى أن أتصرف .. »

دنا منى قليلاً ، فتذكرت القاعدة القديمة : من يستطع مداعبة ما تحت ذقن الكلب يكسب وده . لكن لا تربت على رأسه أبدًا لأنه يفترض أنك ستضربه ..

هكذا مددت كفى كأننى متسول نحو رأسه محاولاً أن أنزل بها تحت ذلك الفم المخيف ..

ـ « صبرًا .. صبرًا .. كلب لطيف .. »

أين ذهب هؤلاء الحمقى ؟

كدت أقترب أكثر حين دوى الصوت من مكان ما :

- « لا تحاول .. لا تصدق كلام الكتب ! »

نظرت إلى مصدر الصوت فرأيته .. وكان قادمًا بسرعة وحزم نحو الكلب .. وهو يقول :

- « دعه يا (نوسفيراتو) .. إنه صديق .. »

(نوسفيراتو Nosferatu) ؟ ما شاء الله ! إنه اسم مناسب جدًا ، لكنه يحمل نذيرًا ما .. لا أحد يسمى كلبه (نوسفيراتو) ما لم يكن هو الكونت (دراكيولا) نفسه ..

تصلب الأخ (نوسفيراتو) وهو ينظر لصاحبه مترددًا نظرة البلطجي الذى يقول : دعنى ألتهم حنجرته هذه المرة فحسب .. سأكون كلبًا مطيعًا فى المرة القادمة ..

ثم قرر أن يستسلم وبدأ يهز ذيله ، على حين تقدم السيد (مازن) ليربت على عنقه ، وأطبق أصابعه على الطوق .. على حين رحت أحرر قدمى من حوض أزهار (الدالكونيا) .. وقال لى وهو يحك عنق الكلب بعنف :

- « معذرة لهذا الاستقبال البارد .. لكن لا تثق كثيرًا بموضوع التربيت تحت الذقن مع كلاب الدوبرمان .. أحيانًا تدعى هذه الكلاب أنك لم تفعل .. »

قلت فى ضيق :

- « كان عليك أن تربطه بعناية .. إن مواعيدى دقيقة .. ولو لم تشعر بنا لوجدت بضع عظام وكلبًا مصابًا بعسر الهضم .. »

- « فلننس ما فات .. ما دام لم يؤذك .. »

- « بالمناسبة .. أنت تجيد زراعة (الدالكونيا) .. »

- « زراعة ماذا ؟ »

- « لا عليك .. لا عليك .. »

وأشار لى فى تهذيب ، فتقدمت عبر الممر إلى باب الدار نفسها ..

★ ★ ★

طبعًا كنت مشغولاً بالكلب فلم أصفه لك - الرجل لا الكلب طبعًا - وهذه مهمة سهلة .. كان ضئيل الحجم دقيقًا إلى حد لن تصدقه ما لم تره .. وهو من الطراز الذى تندهش كيف يصدر منه هذا الصوت العميق الضخم .. له شعر أبيض تمامًا مما يوحى بأن هذا ليس شيئًا عاديًا إنما هو أمر يتعلق بالجينات .. له شىء مبهم أبيض على شفته العليا ، فلا تستطيع أن تتذكر إن كان بشارب أم لا .. عوينات ؟ لا .. إنه ينزعها ويضعها عشر مرات فى الدقيقة فلا يمكن أن تصفه بامتلاكها .. أما عن السن فهو من الطراز مشدود الجلد الذى لا يشيخ بسهولة لذا يصعب التكهن بسنه ، لكن لو تذكرنا كلامه عن

العواطف فلا أستبعد أنه تجاوز الخمسين .. أضف لهذا عشر سنوات لأننى أحمق كالعادة ، فلابد أنه فى الستين إذن ..

كان يلبس الروب القصير اللامع وتحته ربطة العنق ، حتى ليذكرك بالأوغاد فى السينما المصرية .. أعنى من يمثلون أدوار الأوغاد طبعًا .. الذين يقشرون التفاح ويصبون الشامبانيا ويخدعون الفتيات البريئات طيلة اليوم ..

البيت راق جدًا وجدير بمظهره الخارجى .. لا أعرف كيف أصفه لك لأنه من الطراز المبهر الذى ينسيك التفاصيل .. على كل حال نحن لم نأت لشرائه .. لا داعى لإطالة الوصف ..

فتح جهاز تسجيل ما لتنبعث أوبرا (مدام باترفلاى) .. ثم استرخى على أريكة مريحة واضعًا ساقًا على ساق ، ومد يده إلى علبة سيجار فقضم طرف واحد ، وعرض على واحدًا .. لكن صحتى لم تعد تتحمل هذه الطوربيدات ..

قال وهو ينفث السحابة كثيفة فى الغرفة :

ـ « خذ راحتك .. أنا وحدى هنا .. »

ـ « هل توفيت زوجتك ؟ »

ضحك حتى غلبه السعال .. وقال :

ـ « ليس بالضرورة . ثمة احتمال أن أكون مطلقًا .. ثمة احتمال ثالث أن أكون عزبًا .. هل لك فى بعض المياه الغازية ؟ »

ـ « سيكون هذا محببًا .. »

لكنه لم ينهض .. هذا رجل يتقيد بحرفية الكلمات .. كأنه كان يسأل للعلم فقط وليس للاقتراح .. دار بعدها الحديث فى كلام فارغ ، وما أكثر الكلام الفارغ فى هذا العالم .. ربما نصف ساعة أو أكثر ..

ثم إنه استرخى فى مقعده أكثر ، وقال لى وهو يعيد إشعال السيجار :

ـ « على أننى لم أطلبك لأجل ذلك .. القصة يطول شرحها .. أنت طبعًا واسع العلم بعالم ما وراء الطبيعة يا دكتور (رفعت) .. »

قلت باسمًا :

ـ « سأكون صريحًا معك يا سيدى .. لا أحد يستطيع أن يزعم ذلك .. وأعتقد أننى أزداد جهلاً بهذه الأمور يومًا بعد يوم .. لقد فقدت غرور الشباب التقليدى ، واكتسبت كآبة الشيوخ وعلمهم بحدود إمكاناتهم .. »

ـ « إذن لنقل إنك شديد الاهتمام بذلك العالم .. »

- « ولا حتى هذه النقطة .. فقط تصادف أننى دائمًا الشخص الخطأ فى المكان الخطأ فى الوقت الخطأ .. وكنت دائمًا أنجو لأن أجلى لم يحن بعد وليس لبراعة خاصة منى .. »

كنت أعرف خيبة الأمل التى تسببها كلماتى هذه لمن يسمعها .. لكن الرجل لم يبد متأثرًا بما سمع .. إما انه يعتبرنى كاذبًا أو أن هذا لا يحدث فارقًا ..

قلت له :

- « كنت أتمنى لو بدأنا الكلام فورًا .. أنا لم آت إلى الإسكندرية لأشرح وجهة نظرى فى الحياة .. كما أننى اخترت السادسة كى لا أعود فى ساعة متأخرة .. إن القيادة مرهقة فعلاً .. »

- « معك حق .. »

كانت مدام (باترفلاى) لا تكف عن الصراخ ، حين راح يتأمل طرف السيجار المشتعل ، ثم قال بتؤدة :

- « قضيت حياتى أطارد أسرار ما وراء الطبيعة .. أنت تورطت فيها بالصدفة أو بحكم الشهرة ، أما أنا فكنت ابحث عنها بحثًا .. جربت كل شىء .. والسبب هو أنى كنت أقوم بتدريس الفلسفة فيما سبق .. »

قلت بلهجة من وجد الخلاص :

- « فهمت .. يااااه ! علاقة قوية فعلاً .. »

ابتسم .. هذا الرجل يفهم الدعابة فعلاً .. وقال :

- « أنت تسخر منى ، لكنى بالفعل حسبت أن السبيل الأمثل لفهم الكون هو فهم ما وراء الكون .. من نحن وماذا نفعل هنا ؟ إن الفلسفة تحاول فهم الجدار .. وأنا حاولت أن أنظر إلى ما وراء الجدار .. يجب أن أقول هنا إننى لم أفهم الكثير ، فالإجابات عملة نادرة ، لكن أكثر ما اصطدمت به هو الرعب .. إن الأشياء الغامضة مخيفة ياد. (رفعت) .. مخيفة ولا أفهم لذلك سببًا .. »

فى هذا كان أحمق .. نحن نخاف ما لا نعرفه .. كل حمار جر يعرف هذا .. انظر إلى عينى طفل فى الخامسة تطلب منه أن يصافح (عمو) .. (عمو) الذى يراه الآن للمرة الأولى .. انظر إلى بدائى من صحارى أستراليا يرى التلفزيون لأول مرة .. راقب عينى طالبة يستوقفها غريب فى الشارع ليسألها عن شىء ما .. سوف ترى دومًا تلك النظرة .. نظرة الأرنب الخائف الذى يفر ليختبئ منك وقد رآك قادمًا ..

قلت له بنفس التهكم السابق :

- « هكذا رحت تبحث عن عملتك النادرة بين تراب الرعب .. »

– « حاولت واتسخت أناملى كثيرًا .. لكنى لم أفهم أفضل .. وسؤالى لك بعد كل خبراتك هذه .. هل فهمت أفضل ؟ »

قلت له فى غيظ :

– « ألم أنذرك من أن تأتى بى إلى الإسكندرية للكلام عن خواطرك الخاصة ؟ »

لم يول كلامى اهتمامًا وقال فى جدية :

– « أنا لم أفهم الكثير عن عالم ما وراء الطبيعة .. لكنى فهمت الكثير عن فلسفة الرعب .. ولو قررت أن أكتب فى الرعب لصرت أبرع من (بو Poe) ذاته .. إن للرعب ست تيمات أساسية فى رأيى المتواضع .. يمكن القول إن لحصن أمنك النفسى ستة أبواب .. يمكن أن تداهم من أحدها فى أية لحظة .. ولو اتخذت عدتك لهذا الاقتحام لصرت فى أمان .. »

– « سيكون أمنى النفسى فى خير حال لو تكرمت بالدخول فى الموضوع .. »

ضحك من جديد .. هذا الرجل يضحك بلا انقطاع كالضباع .. وقال وهو ينهض :

– « إننى أكتب كتابًا عن (سيكولوجية الرعب) .. وهذا الكتاب ليس بالكتاب الهين .. إنه كتاب عمر كامل .. لسوف يتخذ مكانه على رفوف أية مكتبة محترمة مثله مثل (الوجود والعدم)

و(تفسير الأحلام) و(عن حركة القلب) .. إلخ .. لاحظ أننى لا أتحدث عن الكتب الدينية هنا طبعًا .. لكنى لن أعتبر أننى بلغت الكمال إلا لو أخذت رأى خبير رعب مثلك .. »

ثم أشار لى باتجاه الدرج وأردف :

– « لو تكرمت معى بالذهاب إلى الطابق الثانى لفهمت بعض ما أريد منك .. »

نهضت بصعوبة ومشيت معه ..

إنه يتجه إلى درج خشبى أنيق يصعد فيه .. ومن موضعى العالى هذا اختلست نظرة فهمت بها جغرافية المكان وإحداثياته .. هذه فيلا كأية فيلا أخرى ، وإن لم يكن صاحبها ثريًا جدًا .. ذوقه راق بحق ، لكنه ليس مفرطًا فى البذخ ..

هناك ممر .. والممر يقود إلى قاعة واسعة فى نهايته ..

ابتسم وقال لى وهو يعالج الباب :

– « هذا مكتبى .. سوف تحب المكان .. »

بالفعل كان فى الداخل مكتبة .. لكنى لم أحب المكان .. غرفة مكتب واسعة هى ، تزدان جدرانها بالكتب من الأرض إلى السقف .. كل الكتب مجلدة بعناية دون كتابة على كعوبها .. لكنها مراجع ثقيلة .. يمكن أن تكون عن القانون المدنى أو الفقه

الإسلامى أو الفلسفة الإغريقيـة أو تشريح الرقبـة أو حتـى مجلات (ميكى) منذ صدورها حتى اليوم ..

يوجد مكتب مهندم عليه بعض الأوراق .. وثمـة إضاءة خافتة جدًا .. لقد أعد هذا الضوء بعنايـة كـى يسقط علـى وجه الجالس أمام المكتب ، بينمـا يظل مـن خلفـه فـى الظل ، كما يفعل رؤساء منظمات التجسس فى القصص الرديئة ..

طبعًا مع غرفة مكتب مثل هذه أتوقع أن ....

بالفعل .. إن الرجـل يتجـه إلـى مكتبـة جداريـة عملاقـة ، فيلفها .. إنها تتحرك حـول محـور رأسـى لتنفتـح كالبـاب .. لقد صار هذا المشـهد مملاً .. خلفهـا توجد قاعة لا أعـرف ما فيها ..

وقف على باب القاعة وقال بطريقة مسرحية :

ـ « إن هذا هو مقرى الخاص يـا دكتور (رفعت) .. وإننـى لأقضى فيه من الوقت أضعاف ما أقضيه فى المكتب نفسه .. »

دخلت القاعة فى حذر ..

يمكن أن أقـول تقريبًا إن طولهـا ستة أمتار وعرضهـا أربعة .. تذكرنى إلى حد ما بمتحف علم الأمراض فى كليتى

أو أى متحف عمومًا .. والسبب هو تلك الواجهات الزجاجيـة المتراصة بطول الجدارين .. ثمة رائحة عضوية قويـة وأنـا أكره تلك الروائح التى يكون مصدرها حيوانيًا أو آدميًـا .. إنهـا تثير تقززى نوعًا .. أما سبب الجو الخانق فهو أنه لا توجـد نوافذ هنا .. هناك جهاز تكييف لكنه يعمل بأقل طاقة لديه ..

ـ « لا بد من التكييف حتى لا تفسد العينـات .. برغـم أن الطقس معتدل .. أنت تفهم هذا .. »

الإضاءة خافتة تنبعث من مصابيح جدارية مركبـة بحيث ينبعث الضـوء منهـا لأعلـى .. راسمـة مثلثـات مخيفـة مـن النور على مسافات منتظمة .. لكنها تتعطـف بعض الشـىء على الواجهات فتلقى عليها ضوءًا بخيلاً لا يزيل الغموض ..

هناك لوحات على الجدار .. لوحات تذكرك برسوم (دالى Dali) السيريالية العجيبة ، التى تمزج المقاييس التشريحية الصارمة بتشوه الهلاوس ..

لم أستوعب ما أراه .. فوقفت هنيهة صامتًا ثم قلت :

ـ « لا أعرف كنه هذا المكان .. لكنه أقرب إلى متحف .. »

ـ « بل هو متحف .. لكنه أغرب متحف فى العالم .. »

ثم نظر لى ليرى وقع الكلمات على وقال :

ـ « إنه المتحف الأسود .. »

لم يكن الاسم غريبًا على .. هناك متحف أسود فى (سكوتلانديارد) يضم آثار الجرائم التى حيرت رجال الشرطة فى الماضى .. لكن من الواضح أن الأمر يتعلق بتشابه أسماء لا أكثر ..

دنوت من الواجهات الزجاجية متوجسًا .. فأدركت أن محتواها يناسب هذا التوجس ..

فى الواجهة الأولى ثمة يد بشرية .. يد مبتورة عند المعصم محفوظة فى سائل (الفورمالين) .. هذا جميل وربما هو من المناظر المبهجة بالنسبة لطبيب مثلى .. لكن ما يثير الحيرة ـ وربما الرعب ـ هو تلك الأظفار الطويلة الشبيهة بالمخالب التى تخرج منها .. وعلى الزجاج كانت صورة رجل وقور يبتسم .. هل هذه يده ؟ إذن لماذا يبتسم ؟

فى الواجهة الثانية لا يوجد شىء مخيف ، باستثناء هيكل عظمى كامل .. هيكل متآكل يبدو عليه القدم .. لكن .. لحظة من فضلك .. ثمة خطأ هنا .. إن له أنيابًا حادة قاطعة بدلاً من الأسنان ..

هناك قفازان من الجلد الأسود فى واجهة ثالثة .. هناك مادة هلامية متجمدة كأنها شمعة عملاقة ذابت كلها .. هناك

قطع من مادة حمراء كأنها مشعة أو كأنها حجر كريم .. ثمة عباءة فى واجهة ، ومجموعة من أوعية حفظ العينات كما فى متاحف علم الأمراض ..

هناك كلب محنط يقف متحفزًا فى إحدى الواجهات .. لا شىء يميزه غير أن لونه أحمر بالكامل كأنه الدم .. هل تم طلاؤه ؟ الخلاصة أننى لا أستطيع استيعاب كل شىء بهذه السرعة ..

فى انبهار التفتّ إلى الرجل الذى كان يرمق دهشتى ، وقلت :

ـ « هذه مجموعة مثيرة للاهتمام .. لكنك لم تتقاض منى رسم الزيارة .. »

قال فى مرح أخافنى :

ـ « فيما بعد .. فيما بعد .. هذه أمور يمكن أن تنتظر .. »

قلت له وأنا آخذ نفسًا عميقًا :

ـ « حسن .. القصة واضحة .. أنت قضيت حياتك تجمع آثار عالم الرعب الذى نجهله .. »

- « هو ما تقول .. ولكل واجهة من هذه الواجهات قصة مثيرة أتمنى لو سمعتها .. وأتمنى لو حاولت الفهم معى .. من أين يأتى الرعب ؟ ما سره ؟ »

عقدت ذراعى على صدرى وانتظرت ما سيقول ..

لم لا ؟ أنا متأكد من أن هذا الرجل ليس د . (لوسيفر) وليس خصمًا قديمًا لى .. لقد صرت ذا خبرة فى هذه الأمور .. إن ما سيقصه على قد يكون مهمًا لأقصى حد ، وقد يكون مجرد تفاهات ..

هكذا بدأت حلقة الرعب السادسة ..

وكان مقدرًا لى ألا أعود إلى دارى فى تلك الليلة كما توقعتم ..

★★★



حكاية الرجل الذى أجاد دوره

-١-

وقف (مازن) ينظر إلى الواجهة الأولى من نهاية القاعة .. لم تكن شيئًا خارقًا للعادة ، فيما عدا عباءة سوداء قديمة مغبرة تمزقت بعض أطرافها ، معلقة فى إهمال على غصن شجرة .. طريقة عرض أراها كثيرًا فى محلات وسط القاهرة ، ولا أرى فيها شيئًا غريبًا ..

قال لى :

- « قصة هذه العباءة غريبة بعض الشىء .. وقد اقتضانى الأمر أن أرتحل إلى (ترانسلفانيا) كى أحصل على القصة والعباءة معًا .. »

قلت باسمًا :

- « القصة واضحة الآن . (ترانسلفانيا) وعباءة سوداء .. أنت تتحدث عن مصاص دماء ياصديقى .. ربما كان الكونت (دراكيولا) ذاته .. »

ضحك بدوره وقال :

- « نعم فلن أنسى أنك محترف إلى حد ما واسع الخبرة ، لكنى أراهنك على أن القصة التى سأحكيها من الطراز الذى يروق لك .. إنها تمثل طرازًا معينًا من الرعب .. رعب

الغفلة .. رعب (كان الأمر واضحًا لكنى لم أنتبه له وقتها) .. الدخان ينقشع ببطء وأنت لا تعرف ماذا يحدث . هو ذا يشكل المعالم الخارجية لجسد .. الآن يزول الدخان تمامًا وتفهم أنك تقف أمام شيطان .. هنا تدرك أن الأمر كان واضحًا .. كيف لم تنتبه لهذا فى اللحظات الأخيرة ؟ »

* * *

قال (مازن) :

بدأت القصة منذ فترة فى (ترانسلفانيا) ..

كان المخرج الأمريكى الشاب (جوناثان بيكر) يجيد عمله حقًا .. إنه واحد من جيل (الصبيان المزعجين) فى السينما الأمريكية .. يمتازون بالذكاء والنشاط .. هم دومًا قادرون على تحقيق أفضل نتيجة ممكنة بالميزانية المطلوبة فى الوقت المطلوب .. لكن لا تتوقع منهم عبقرية خارقة ..

وكان الفيلم المزمع تصويره والذى قبل السيناريو الخاص به هو فيلم آخر من أفلام مصاصى الدماء ..

حين عرض عليه المنتج المنفذ السيناريو ، تصفحه بسرعة ثم قال فى ضيق :

- « لم يعد أحد يتحمل أفلام مصاصى الدماء يا (ويلى) .. لقد انهارت شركة (هامر Hammer) .. »

كان المنتج رجلاً ضخم البطن راضيًا عن نفسه .. وبالتالى يعتبر أن الجميع حمقى أو أوغاد ، وقد قال له وهو يفتح علبة من الجعة :

- « لقد قدمت شركة (هامر) محاولات تجديد لا بأس بها .. »

- « لكنها انهارت برغم هذا .. لقد عزف الناس عن محاولات التجديد لأنها (ليست مما ألفوه) .. بينما عزفوا عن أفلامها التقليدية لأنها (مما ألفوه) .. هناك لحظة تقرر فيها الجماهير فجأة أن اللعبة انتهت .. ولا أحد يعرف متى ولا لماذا .. »

قال المنتج وهو يفرغ محتويات العلبة فى بطنه العملاق :

- « لقد صار الناس أكثر ميلاً إلى الرعب الأمريكى بعد ما قدمنا (طارد الأرواح الشريرة Exorcist) و(طفل روزمارى Rosemarys Baby) .. انتهى الرعب البريطانى رخيص التكاليف .. رعب الأحمر والأسود .. لم يعد أحد يخاف من رجل يضع أنيابًا من البلاستيك ويزأر متظاهرًا بالوحشية .. الآن جاء عصر الرعب الأمريكى بلونيه الأزرق والأخضر .. رعب الميزانيات العملاقة .. رعب المؤثرات التى لا تصدقها ما لم ترها .. »

فكر الفتى وهو يداعب لحيته الشقراء القصيرة :

- « لا أعرف يا (ويلى) .. ما زلت مترددًا .. »

هشم المنتج العلبة التى فرغ من شربها .. ثم قال فى برود :

- « هذا هو السيناريو .. وأنا أريد منك أن تصنع منه شيئًا خارقًا للعادة .. خذه أو اتركه .. هناك عشرات المخرجين غيرك يتمنون فرصة كهذه .. »

لم يفكر المخرج مرتين طبعًا .. كان طموحًا وكان يعرف أن الطريق لتحقيق طموحه وأن يفعل ما يريد هو أن يبدأ بفعل ما لا يريد .. قال وهو يأخذ السيناريو :

- « ليكن يا (ويلى) .. سأخرج هذا الفيلم .. »

★ ★ ★

كما هى العادة فى السينما الأمريكية ، كانت الميزانية سخية جدًا .. الجديد هنا أن التصوير سيتم فى (ترانسلفانيا) بالذات .. فى قلعة الكونت دراكيولا ذاتها ..

وقد انتقل فريق العمل إلى هناك ، وتمت إعدادات المعسكر التى تشبه أية إعدادات (لوجيستية) لأى جيش معاصر .. إن الجزء الذى سيتم تصويره فى (ترانسلفانيا) معقد وهو الأصعب فى عملية التصوير ، بينما الجزء الخاص بالولايات المتحدة سهل على الأرجح .. مجموعة من العلماء يتناقشون فى شك .. حسناء خائفة فى غرفة نومها .. إلخ ..

يتضمن السيناريو أن سائحًا أمريكيًا يضل طريقه فى قلعة الكونت (دراكيولا) .. يصرخ كثيرًا ويحاول كثيرًا وفى النهاية يقهره التعب فينام .. آخ .. كيف لم يعرف هذا الأحمق أن المكان الذى إختاره للنوم هو القبو ؟ كيف لم يعرف أنه ينام إلى جوار تابوت الكونت (دراكيولا) نفسه ؟ التابوت الذى فشل من بحثوا فى القصر فى العثور عليه ، لكنه وجده بضربة حظ أو سوء حظ ..

الآن تتسرب رائحة اللحم البشرى إلى منخرى الكونت .. لقد بدأ هذا ينعش خلاياه .. إنه ينهض .. إنه يرفع غطاء التابوت .. إنه يستولى على روح السائح .. لكنه ما زال واهنًا لا يقدر على مغادرة القلعة ..

بعد هذا يصير السائح خادمًا له .. يكلفه بإحضار الناس إلى مقبرته .. والهدف هنا أن تتم طقوس معينة فوق تابوت الكونت .. هذه الطقوس سوف تعيد له قدراته كاملة .. إن الضيوف يعتبرون ما يدور مزاحًا لكن السائح الأول هو الوحيد الذى يفهم معنى ما يحدث ..

وفى اللحظة المروعة يتحرر (دراكيولا) وقد صار قويًا كما كان .. ينقض على الضيوف ويفتك بهم .. ثم يخرج إلى العالم الخارجى ويعبر المحيط إلى الولايات المتحدة ..

كان (جوناثان) الشاب يعرف أن الجزء الفائت لا جديد

فيه .. يمكن أن تقدمه (هامر) بسهولة أو تكون قد قدمته منذ أعوام فى أفلامها التى لا حصر لها عن (دراكيولا) ..

وقالت له مساعدته ذلك .. وهى فتاة فاتنة - بالمقاييس الأمريكية - تدعى (ويلما) .. كانت جالسة تتأمل القلعة الجاثمة كالكابوس وسط الضباب من بعيد ..

قال لها وهو يريح ساقيه على مقعد أمامه ويرفع رأسه ليتأمل الشمس :

- « أعرف هذا .. لكنى أراهن على عدة اشياء .. أولاً شخصية (دراكيولا) ذاتها لن تكون مسطحة مثل شخصيات (هامر) المعتادة .. سوف نتحاشى أسلوب التنميط أو القولبة Archetyping الذى تجيده تلك الشركة .. (دراكيولا) كما سنقدمه نحن شخصية ثلاثية الأبعاد لم ترد فى السينما قط .. ثانيًا : أراهن على مجموعة المؤثرات البارعة التى سنحاول أن نقدمها .. هذه أشياء لا يقدر البريطانيون عليها .. ثالثًا : سأحاول أن أستفيد من أخطائنا هنا لأصححها فى الولايات حين نعود .. يمكن أن يقوم الكونت بأشياء مرعبة فعلاً حين يذهب إلى هناك .. »

راحت تدون بعض الأرقام فى لوح الكتابة الذى تمسك به .. ثم سألته :

ـ « هل حددت أماكن التصوير داخل القلعة ؟ إن تصريح الحكومة الرومانية لن يدوم للأبد .. »

كان لا يعترف .. لنفسه بالحقيقة .. هو بالفعل لم يحب قط هذه القلعة .. إن لها شخصية قمينة لو كانت للأماكن شخصيات .. وهذه الشخصية القمينة لا علاقة لها بالهستيريا أو التأثر بما قيل عن القلعة قديمًا .. هو ليس من هذا الطراز .. إن لهذه القلعة وجودًا نفسيًا لا شك فيه ، والعارفون بهذه الأمور يقولون إن أى مكان جرت فيه مذابح سابقة يحمل هذا الوجود النفسى ..

لهذا ظل يؤجل لحظة البدء بالتصوير داخل القلعة .. راح يضيع الوقت فى التقاط مشاهد عامة لها من الخارج .. وكان من الواجب أن يسعده كون القلعة كئيبة .. هذا يسيل له لعاب أى مخرج رعب .. لكن الحقيقة هى أنها كانت كئيبة أكثر مما يلهم مخيلته أو يسعده ..

عادت (ويلما) تسأله :

ـ « لم تستقر بعد على ممثل (دراكيولا) .. »

كانت هذه ورقة لعب مهمة يحتفظ بها .. إن ممثل دور (دراكيولا) سيكون ـ للمرة الأولى على قدر علمه ـ نبيلاً رومانيًا أصلاً .. رجلاً يتكلم الرومانية بطلاقة ويتكلم الإنجليزية بصعوبة ولكنة شرق أوروبية ثقيلة ..

قال لها فى ضيق :

ـ « سوف أجده حتمًا .. لا تقلقى .. »

وكان مساعده الآخر الرومانى أو ما يمكن أن نطلق عليه (منسق الجزء الرومانى من التصوير) شابًا متحمسًا يدعى (إيزاك) .. مهمته كانت أن يقابل هؤلاء الراغبين فى التمثيل .. يطلب منهم تلاوة بعض السطور ثم يهز رأسه ويعد بالاتصال بهم .. كان الوقت يمر والمخرج يزداد قلقًا .. لكنه لم يكن مستعدًا للاستعجال :

ـ « للمرة الأولى أعطى دورًا محوريًا بهذه الأهمية لشخص لم يقف أمام الكاميرا فى حياته .. هذه مقامرة مريعة .. »

قال مساعده الرومانى وهو يشعل لفافة تبغ :

ـ « لهذا بالذات لا أحد يصلح حتى هذه اللحظة .. كلهم لا يجيد قراءة سطر واحد .. »

هكذا أمضى المخرج أيامًا قلقة .. إن اليوم يكلف مالاً باهظًا ، وبدأ يتساءل إن لم يكن من الواجب استدعاء ممثل رومانى أو أمريكى محترف عبر المحيط لإنقاذ الموقف ؟

فى اليوم الثالث جاءه المساعد يلهث وهتف :

ـ « وجدتها .. أعنى وجدته ! »

ـ « من هو ؟ »

ـ « ممثلك المرموق .. الكونت (دراكيولا) .. تعال معى حالاً .. »

هكذا ترك ما فى يده ، واتجه عبر المقطورات المتراصة إلى حيث كان بعض رجاله يحيطون برجل فارع القامة .. من النظرة الأولى عرفه إنه هو .. كان مهيبًا غريبًا له طابع ارستقراطى لا تخطئه العين ، لكن الأهم من هذا أنه

كان لا يشبه (كرستوفر لى Christopherlee) فى شىء .. وهذه مزية مهمة لمن يحاول أن يختلف عن (هامر) ..

دنا من الرجل .. كانت له عينان ثاقبتان رائعتان ..

قال المساعد الرومانى :

ـ « هذا هو (يوجين أولاف) .. مدرس متقاعد يهوى التمثيل ، وهو يرغب فى فرصة معنا .. »

راح المخرج يدور حول الرجل بتلك الطريقة غير الإنسانية التى يجيدها المخرجون ، كأنما يتعاملون مع مقعد حمام أو مضخة ماء .. كانت ملامح الرجل الحادة ونظراته الثاقبة لا تقاوم ..

ـ « هل يعرف كيف يمثل ؟ »

تكلم المساعد مع الرجل بالرومانية ، فنفش هذا صدره وبلهجة قطيعة قال :

ـ « أكون أو لا أكون .. تلك هى المسألة .. »

واستمر فى أداء مونولوج (هاملت) الذى يحفظه جيدًا ، لكن ملامح وجهه كانت تعبر بصدق أكثر مما يعبر لسانه .. يمكن أن تتابع الحوار من عينيه ..

قال له (جوناثان) بعدما فرغ من الكلام :

ـ « أنت تعرف (هاملت) .. هذا جميل .. »

قال بنفس اللهجة وبوقار لا حد له :

ـ « كنت أدرس الأدب الإنجليزى منذ أعوام .. إننى أجيد الإنجليزية يا رئيس .. »

وبصرف نظر عن موضوع ما يعتقد أنه إجادته للإنجليزية ، وبصرف النظر عن مناداة (جوناثان) بـ (رئيس) وهى طريقة لم يحبها قط ، فإن المخرج بدأ يعتقد أن الحظ قد أسدى له خدمة .. لقد وجد ممثلاً لا بأس به .. بعض التدريبات ستكون كافية .. ولسوف يتساءل الناس عن عبقرية المخرج الذى وجد هذا الممثل البارع الذى لم يمثل قط من قبل .. سيكون (يوجين أولاف) حديث (هوليود) لفترة ، إلى أن ينسى موضوع الفيلم ، عندها لن يجد من يهتم به أبدًا ..

★ ★ ★

بالفعل برهن (أولاف) على أنه ممثل بالفطرة .. كان

مطيعًا واجتاز كل اختبارات الكاميرا بتفوق ، كما أنه خضع لعدة دروس فى الإلقاء .. لم يكن المطلوب إخفاء لكنته الثقيلة بل إظهارها أكثر ..

كما أنه لم يتحدث فى الماديات على الإطلاق .. لقد قبل أى مبلغ عرضوه عليه .. وإن راقت له فكرة أن الجزء الباقى من التصوير سيستكمل فى الولايات المتحدة ..

ذهب مصمم الإنتاج مع مساعد المخرج إلى البلدة .. هناك ابتاعا بعض الإضافات الضرورية للشخصية ، ووجدا لدى أحد الغجر المسنين الذين كفوا عن الترحال أشياء مهمة .. عباءة سوداء تصلح للدور وقلادة غريبة الشكل .. كلها اشياء مهمة وتنشط الخيال بلا شك ..

أخيرًا جاء اليوم الموعود وسلطت الأضواء .. وارتدى (أولاف) الثياب السوداء وتدثر بالعباءة ، فشعر كل من رآه برجفة تزحف عبر عموده الفقرى .. وهمس (جوناثان) فى إذن مساعدته :

ـ « لا أحب كثيرًا أن أمشى فى طريق مقفر مظلم لأجد هذا الرجل أمامى .. وهل تعرفين معنى هذا ؟ »

نظرت له متسائلة ، فهتف فى مرح :

ـ « معناه أننا سننجح يا صغيرة ! سننجح ! »

كان المشهد يمثل الكونت (دراكيولا) وهو راقد فى التابوت .. وقد بدأ يستعيد قواه ..

كان ذلك التابوت العتيق موجودًا فى القبو منذ زمن ، وقد راق للمخرج لأنه من طراز فريد .. إنه حجرى ثقيل عليه نحت قوطى لا بأس به أبدًا .. تحتاج إلى ثلاثة رجال كى تزيح غطاءه .. والأهم من هذا أنه كان فارغًا ..

من المثير أن الممثل الصاعد رفع قدمه بلا تردد وخطا داخل التابوت كأنما كان يفعل هذا طيلة حياته .. أما الأهم فهو أن التابوت كان يناسبه بالضبط .. لا يوجد سنتيمتر واحد أطول ولا أقصر .. يذكرك هذا بأسطورة (أوزيريس Osiris) الفرعونية الشهيرة .. حينما لم يكن فى الحفل كله من يصلح جسده للتابوت إلا هو ..

ماذا فعل المخرج وطاقم التصوير ؟ هللوا طربًا لكل هذه المصادفات السعيدة ..

فى رأيى أنه توجد علامات مريبة .. الكثير منها فى الواقع ..

ألا تراها معى ؟ إن الصورة تتجمع .. تحتشد ببطء لكن أحدًا لا يراها ..

* * *

ـ ٢ ـ

قال (مازن) :

ظل المخرج الشاب (جوناثان) يعمل فى الأيام التالية .. لقد بدأ يتغلب على نفوره من القلعة والتقط فيها مشاهد ناجحة .. لقد اقتربت مشاهد (ترانسلفانيا) من الانتهاء على كل حال ، بعد هذا يعود إلى الوطن ومعه ذلك الممثل البارع الذى لم يمثل قط ..

وسأل مساعدته وهو يفتح علبة من المياه الغازية :

ـ « كيف حال ممثلنا الصاعد ؟ »

ـ « إنه قليل الكلام لكنه بخير حال .. ملتزم تمامًا بمواعيد التصوير .. يأتى قبلها بساعتين ، ويعود بعدها بساعتين .. أنت تعرف أنه يسكن قريبًا من هنا .. وهو غير متزوج وبلا أطفال .. لعل هذا يفسر كل هذا الالتزام .. »

ـ « ولماذا لا يقيم مع طاقم العمل هنا ؟ »

ـ « إنه غير مولع بالاجتماعيات .. ولا يحب مخالطة البشر .. على كل حال لن يبدأ تحطيم عاداته الانعزالية بالاختلاط بأمريكيين .. »

وضحكا معًا .. إن الأمريكيين قوم غير متحفظين بطبعهم

أميل إلى المرح والصخب ، بينما هذه الطباع المنغلقة يناسبها البريطانيون أكثر .. وهذه من نقاط تهكم الأمريكيين على البريطانيين التقليديين بناة الإمبراطورية التى لم تعد كذلك ..

نظر إلى لوح الكتابة الذى ثبتت إليه الأوراق بمشبك فى يده ، وسألها :

ـ « هل أعددت كل شىء لمشهد الحفل ؟ »

ـ « كل شىء جاهز لكنه سيكون مشهدًا معقدًا .. إن هناك مجاميع .. وليكوننّ التتابع مشكلة .. »

ـ « إنهم لم يرسلونى هنا لأننى درست الإخراج بالمراسلة .. »

وبدأ الفتية يتوافدون .. هم مجموعة من الرومانيين من الجنسين أكثرهم يجيد الإنجليزية .. وكانوا سعداء بفكرة الظهور على شاشة السينما فى (هوليوود) مع احتمال ضئيل جدًا أن يروا أنفسهم ، لأن الحكومة لن تسمح بعرض الفيلم على الأرجح ..

راح (جوناثان) يراجع الأحداث مع الفتاة .. مط شفته السفلى وبدا غير مستريح ، ثم غمغم :

ـ « الطقوس التى ستقام على تابوت الكونت لا تريحنى ..

فيها افتعال واضح .. كأنما هم أطفال يلعبون .. أريد أن تبدو أكثر أصالة .. »

ـ « وهل تعرف كيف نجعلها أكثر أصالة ؟ »

ـ « أطلبى (إيزاك) .. هذا الفتى يعرف الكثير من الحلول .. »

وجاء الفتى (إيزاك) المتحمس ، وهو يلهث ويعرق بغزارة كعادته .. لقد أمضى أسود ساعات حياته مع كل هؤلاء الشباب الذين لم ير أى منهم كاميرا من قبل ، لكنها أسود وأهم ساعات حياته كذلك ..

قال لـ (جوناثان) بعد ما أخبره بمشكلته :

ـ « يمكن أن أستشير الغجر (التسجانى) .. هناك واحد منهم فى البلدة .. أعتقد أن كل هؤلاء القوم مارسوا السحر يومًا ما .. أو كان لهم قريب يمارسه .. »

ألح عليه (جوناثان) :

ـ « أريد تفاصيل كاملة دقيقة .. هذه الأشياء قد لا تعنى الكثير لمشاهد أمريكى ، لكن لا بد فى هذا الزمن الأسود من أمريكى من أصل رومانى أو كان ساحرًا أو مصاص دماء ليقول لنا إن ما قدمناه فى الفيلم هراء .. »

لم يفهم (إيزاك) ، لكنه فهم شيئًا واحدًا فقط .. عليه أن يكون دقيقًا ..

وهكذا عاد بعد يومين حاملاً ثلاث ورقات مليئة بالتفاصيل .. يبدو أن هناك دم طائر سيسيل على التابوت .. هناك شمعة سوداء .. إلخ .. هذه تفاصيل لن أخوض فيها يا د . (رفعت) .. أنت تفهم هذه الأمور ..

تمت عدة بروفات على المشهد .. ثم أعلن (جوناثان) أنهم سيبدءون التصوير حالاً ..

رقد (أولاف) فى التابوت ، وحرصوا على رفع الغطاء قليلاً عن طريق وضع رافعة معدنية تحته كى لا يختنق الرجل .. فالتابوت ـ كأى تابوت آخر ـ سيئ التهوية ..

وهكذا بدأت الكاميرات تدور .. نعم كاميرات لأن (جوناثان) قرر أن يصور هذا المشهد بالذات بثلاث كاميرات ، لأنه معقد بما يكفى .. ولسوف يستطيع فيما بعد انتقاء اللقطات الصالحة ..

الشباب يحتشدون حول التابوت .. يتبادلون عبارات المزاح بالرومانية .. زجاجات .. ضحك .. فتاة تنهض لترقص فى هيستيريا .. هذا الحوار كتبه (إيزاك) بالرومانية طبقًا لتعليمات المخرج ..

(ستيفن) الممثل الأمريكى الذى يقوم بدور خادم (دراكيولا) يقف وسط الشباب .. يلوح بيده طالبًا الصمت :

ـ « لحظة يا شباب .. إن هناك لعبة مرحة ستضفى إثارة على الأمسية .. »

قالها بالإنجليزية .. واتسعت عيناه كأنما يخيف طفلاً ، فصاحت فتاة :

ـ « هل ستمارس السحر الأسود ؟ »

ـ « تقريبًا .. »

وببطء بدأت الطقوس .. ذبح الطائر .. الشمعة السوداء .. النجمة الخماسية اللعينة على الأرض .. ثم وقف (ستيفن) عند رأس التابوت وفرد ذراعيه .. وبدأ يتكلم بالرومانية .. لقد كان يحفظ ما يقال عن ظهر قلب ، وإن كان بالطبع لا يفقه منه حرفًا .. فقط كان يعرف متى يتحمس ومتى يخفض صوته إلى درجة الهمس .. الخلاصة أنه بدا ممثلاً شكسبيريًا يؤدى دورًا لا يعرف حرفًا واحدًا عنه ..

وشعر الواقفون بتلك الرجفة التى خلقت فينا منذ مشينا على ظهر الأرض .. الرجفة الوحشية الأولى التى تشعر بها وأنت تمرر يدك على ظهر قط متوتر لسبب ما ..

الحق أن تأثير صوت الرجل وكلماته التى يستحيل فهمها .. مع الإضاءة الخافتة .. والصمت التام ما عدا ذلك .. كل هذا كان له تأثير التنويم المغناطسى (المدوخ) .. وبدا أن كل من يقف أمام الكاميرا أو خلفها يعانى الشىء ذاته ..

هل كل هذا تمثيل ؟ لقد ود (جوناثان) لو يقول هذا ويصف الممثل بأنه عبقرى ، ويصف نفسه بأنه أفضل مخرج عرفه ، لكنه كان يعرف ما هو أفضل ..

ثمة شىء ما لا يريح فى هذا كله ..

هنا فقط سمع الجميع صوت الأنين ..

وبدأ غطاء التابوت يتحرك ..

كرى ى ى ى ى !

صرخت إحدى الفتيات وقد أفزعها المشهد ، وارتجف (ستيفن) ذاته وبدت عليه علامات الغباء ..

ـ « اقطع !! »

كذا صاح (جوناثان) وقد أدرك أن التناغم الأولى للمشهد قد فسد ..

وهب الجميع نحو التابوت الذى انفتح إلى النصف الآن .. وتعاون الرجال على إزاحة الغطاء الثقيل ليخرجوا (أولاف) منه .. كيف انفتح هذا الغطاء الثقيل الذى لا يستطيع إلا ثلاثة رجال زحزحته ؟

خرج (أولاف) من التابوت .. وبدا كأنما هو مذعور أو مذهول ؛ لذا طلب منهم الإذن وابتعد مسرعًا ..

وهتفت المساعدة فى عصبية :

ـ « لماذا أوقفت التصوير ؟ كان من المفترض أن ينفتح التابوت .. »

نظر لها (جوناثان) نظرة ذات معنى ، وقال :

ـ « كان الغطاء سينفتح قليلاً .. لكن ليس فى هذه اللحظة بالذات .. وكان سينفتح بأيدى العمال الذين يشغلون الرافعة وليس من تلقاء ذاته .. ! »

* * *

فى اليوم التالى اختفى (أولاف) تمامًا ..

لقد بحثوا عنه كثيرًا ، وذهب مساعد المخرج إلى البلدة فلم يجده ..

كان (جوناثان) الآن فى أسوأ حال من التوتر والعصبية .. لقد انتزع أكثر شعيرات لحيته شبه النامية .. لقد اختفى الممثل الرئيس ، ومعنى هذا أن كل ما تم تصويره لم يعد ذا جدوى ..

طلب الشرطة لكنه كان يعتقد أنهم يستقلون شأنه .. هم لا يهتمون إلا بالحوادث ذات الشأن ، لكنهم لا يحترمون كثيرًا هؤلاء السادة المترفين الذين يبحثون عمن يؤدى دور (دراكيولا) ..

واتصل بالولايات المتحدة ليخبرهم بالكارثة ، فانهالت عليه الصواعق .. عبثًا حاول إفهامهم أنه لم يقتل الرجل ولم يخفه في جيبه .. لكن (العمل هو العمل) ولا مجال للعواطف أو الأعذار ..

وعبر المحيط سمع المنتج يزأر من دون حاجة للهاتف :

ـ « وماذا تنتظر يا أحمق ؟ ابحث عن ممثل آخر فورًا ، وعليك أن تعيد تصوير كل هذه اللقطات فى زمن قياسى .. إنك متأخر عن جدولك أصلاً ، وإننى لأتوقع منك معجزة .. »

ـ « سأفعل يا (ويلى) .. »

لكنه بشكل ما أدرك أنه انتهى .. لن يعهدوا له بفيلم عن بالوعات المجارى فيما بعد .. هذا الارتباك الذي لا ذنب له

فيه لا يفعل إلا أن ينثر الغبار من حوله .. ومع الغبار لا يستطيع أحد أن يعرف من كان المخطئ ..

وهكذا جلس مع مساعدته يحاولان إنقاذ ما يمكن إنقاذه ..

بعض اللقطات لم يظهر فيها (أولاف) وهذا جيد .. المشهد الكارثي لم يكن مفروضًا أن يظهر فيه (أولاف) إلا كلمحة عابرة .. هذا شيء يمكن إنقاذه بالمونتاج دون إعادة تصوير الحفل الصاخب ثانية ..

قال لها وهو يتأمل ما ينبغي إعادته من لقطات :

ـ « أعتقد أننا سننجح .. لكننا قد عدنا إلى نقطة البحث عن ممثل .. »

ـ « سنجد واحدًا ، لكن سيكون عليك أن تتنازل قليلاً .. لم نعد نملك كل الوقت كما كنا في الماضى .. »

ـ « إن جدتى تصلح للدور .. فلو استطعت أن آتى بها لأنقذت الموقف ، لكنها متوفاة منذ عامين .. »

هكذا عادت الحياة إلى انتظامها ما عدا عملية البحث المحمومة عن رجل يصلح لأداء دور الكونت ..

وفى اليوم الخامس ظهر (أولاف) من جديد ..

* * *

ـ ٣ ـ

قال (مازن) :

كان ظهور الرجل دراميًا ، حتى شعر (جوناثان) بأنه موشك على البكاء .. فلولا الوقار لارتمى في أحضان الرجل وبكى ساعتين على كتفه .. فما إن انتهت إجراءات الترحيب ، حتى سألوه عن سبب اختفائه غير المبرر ..

اكتفى الرجل بأن هز رأسه فى وقار وابتسم :

ـ « إنها أسباب دينية يا رئيس .. »

ـ « دينية ؟ »

ـ « أنا أنتمى لجماعة تمارس ديانة خاصة لا يعترف بها القوم هنا ، وهذه من مناسباتنا الدينية التي نعتزل فيها فى جبل (زاراندولى) .. »

تماسك (جوناثان) كى لا ينفجر فى الرجل .. لن يتكلم كذلك عن الشرط الجزائي فى العقد .. لا يريد أية مشاكل .. إنه بالفعل تحت رحمة الرجل تمامًا ..

ـ « كان بوسعك أن تخبرنى .. المرء لا يذهب للتعبد فجأة .. »

ـ « لا بد من أن يتم التعبد فجأة يا رئيس .. »

على كل حال لم يعد باستطاعة (جوناثان) أن ينفعل أكثر من هذا حتى لا يموت بنوبة قلبية .. وقد حاول عبثًا إقناع نفسه بأن أسوأ ما فى الموضوع قد مر ..

ومن جديد عاد النشاط إلى عالم التصوير ..

في اليوم التالى كان (جوناثان) مشغولاً بالعمل ، حين سمع الرومانيين يتهامسون وساد جو عام من القلق .. ثمة مشكلة ما لا يعرف ما هى ..

ـ « هيه ! (إيزاك) ! ماذا هنالك ؟ »

دنا منه الفتي وهو يجفف عرقه بمنديل عملاق ، وبصق على الأرض ليظهر انهماكه وقال :

ـ « جثة يا سيدى .. »

ـ « آه .. حسبت الأمر مقلقًا ..»

ثم تنبه لخطورة ما قاله الفتى ، فعاد يستزيده من التفاصيل .. قال هذا وهو يشير لما وراء الأطلال :

ـ « جثة أحد الكهربائيين الرومانيين .. وجدوها صباح اليوم خلف هذا الطلل .. من الواضح أن الوفاة غير طبيعية .. »

ـ « وهل طلب أحدكم الشرطة ؟ »

ـ « إنهم في الطريق .. دعنى فقط أشرح لك كيف أن الوفاة غير طبيعية .. لقد وجدوا ثقبين فى عنق الرجل هنا .. »

وأشار إلى عنقه حيث الوريد الودجي .. وأردف :

ـ « ثم إن الجثة خالية من الدماء ! »

هنا ـ كما نتوقع ـ جن جنون المخرج ، فصاح وهو يمسك بالفتى من سترته :

ـ « كف عن السخف .. ليس لأننا نمثل فيلمًا عن مصاصى الدماء تأتى لتقول .. »

ـ « أنا لم أقل شيئًا يا سيدى .. الجثة هى التى تقول .. »

وهرع (جوناثان) يشق زحام الأهالى الواقفين .. ليجد بين أقدامهم تلك الجثة التى لن تصدق وجودها ما لم ترها .. كانت جدة (جوناثان) قد أصيبت بسرطان المعدة ، وكانت تنزف دمها كله من الفم والشرج .. يذكر وجهها فى آخر أيامها حين كان يخاف الدخول إلى حجرتها فى دارهم .. هذا الوجه المصفر الذى لو اعتصرته لما خرجت منه قطرة دم

واحدة .. العينان الغائرتان الجاحظتان .. إن المشهد الآن يتكرر لكن ما يجعله مرعبًا بحق هو هذان الثقبان في العنق ..

هل مصاصو الدماء حقيقيون ؟ نعم هو يعرف أنهم حقيقيون .. لكن ليس بالشكل الأسطورى الذى تراه فى السينما أو تقرأ عنه فى القصص .. ليسوا وطاويط آدمية تنام النهار وتصحو ليلاً .. وتموت لو غرس وتد فى صدورها .. هم مرضى نفسيون يحبون مذاق الدم لا أكثر ولا أقل .. بعض حالات (البورفيريا Porphyria) تحتاج إلى الحديد وتحصل عليه بشكل شنيع .. فلو أضفنا لهذا ملامح مريض البورفيريا الشاحب ذى الجلد المتسلخ ، والعينين الحمراوين ، والشحوب البالغ والأسنان المدببة والخوف من الضوء ، لأمكننا أن نعرف من أين ولدت أساطير مصاصى الدماء والمذءوبين ..

كان الرومانيون يرددون لفظة :

ـ « فامفيرى .. فامفيرى .. »

وهو لم يكن غبيًا ولم يحتج إلى عبقرية كى يعرف أنها تعنى (مصاص دماء) .. هى تشبه (Vampire) إلى حد كبير ..

الخلاصة أنه كان يومًا عصيبًا خاصة حين جاء رجال الشرطة وأجروا تحقيقاتهم مع الجميع .. أين (أولاف) ؟ لماذا يختفى هذا الأحمق كلما احتاجوا إليه ؟

عرفوا أن الكهربائى ـ الذى يسمونه حسب مصطلحات السينما الأمريكية بـ (الفتى الأفضل Best Boy) ـ شوهد للمرة الأخيرة ليلة أمس ، وقد ترك رفاقه فى المعسكر وذهب إلى الأطلال .. لماذا ؟ للتبول طبعًا .. لا توجد أسباب أخرى .. هناك دورة مياه هنا لكن هؤلاء الأشخاص يتبعون قدرهم بإصرار غريب ..

هكذا مرت ليلة سوداء أخرى ..

كان (جوناثان) فى مقطورته يشعر بأنه بحق ملعون .. كل الكون قد خرج ليظفر به ويمنعه من النجاح .. المصادفات حين تحتشد تجعل الأمر موحيًا بعدم الكفاءة .. من الناحية الأخرى من المحيط لا يعبأ أساطين الشركة كثيرًا بالقصص عن اختفاء الممثل الأهم من أجل عيد دينى لا يعرفه أحد ، ولا عن مصاص الدماء الذى يتسلى بامتصاص فريق العمل .. كل ما يعرفونه هو أن (جوناثان بيكر) فشل مع أول ميزانية ضخمة تمنح له ..

فى الثامنة صباحًا سمع من يدق على باب المقطورة ..

فتح الباب فوجد المساعد الرومانى مع رجل نحيل أسمر له شاربان طويلان شائبان يتدليان على جانبى فيه إلى أعلى عنقه .. وكانت ثيابه مبهرجة الألوان ، وفى قدميه حذاءان برقبة .. على كتفه حقيبة يبدو أنها ثقيلة ، وقد نزع قبعته وضمها إلى صدره احترامًا ..

قال له المساعد :

ـ « هذا الرجل من غجر (التسجانى) .. إنه من عرفنا منه تلك الطقوس .. يبدو أن لديه أشياء مهمة يجب أن تعرفها .. »

سمح للرجل بالدخول وهو ينظر فى ريبه إلى شكله العجيب .. وتبادل نظرة مع المساعد من طراز (ما ـ هذه ـ المخلوقات ـ الغريبة ـ التى ـ تحضرها ـ لى ـ ؟) ، فمط المساعد شفته السفلى بمعنى الاعتذار ..

جلس الغجرى على مقعد خشبى فى وسط المقطورة وبدأ يتكلم بالرومانية ، فراح المساعد يترجم :

ـ « نحن غجر (التسجانى) كنا خدم الكونت (دراكيولا)

منذ كان يدعى (فلاد الوالاشى) ويعيش هنا .. نحن نعرف الكثير من الأسرار .. لقد منحنا الكونت ثقته .. ونحن نعرف منذ زمن أنه يحاول العودة .. والعودة قد لاحت علاماتها بشكل غير مسبوق .. نعرف أنه سيأتينا رجلاً عاديًّا .. وسيكون علينا أن نقيم له بعض الطقوس التى نعرفها من فوق التابوت الذى سيرقد فيه .. هذا يعيد له قواه الكاملة .. هكذا يتحول إلى (فامفيرى) ويستعيد القدرة على الطيران واختراق الحجب ببصره ، مع القوة الخارقة التى لا يصمد أمامها صامد .. »

فى نفاد صبر قال (جوناثان) :

ـ « هل يمكنك أن تختصر ؟ »

قال الغجرى بعد ما نقلت له الترجمة :

ـ « لهذا أرجو أن تلحق بى إلى الأطلال المجاورة الآن .. هناك ما يجب أن تراه .. »

ـ « هل يمكن أن ينتظر هذا حتى ينتهى يوم التصوير ؟؟ »

فى ذعر هتف الغجرى :

ـ « لا .. لا .. لا يمكن أن يحدث هذا ليلاً .. »

وهكذا تحرك الرجال الثلاثة عبر الأطلال .. لم تكن الحركة فى موقع التصوير قد نشطت بعد ، لذا لم يسأل أحد أسئلة مريبة .. واتجه الجميع إلى منحدر وعر يقود إلى حفرة تحيط بها بقايا الحجارة .. حجارة ربما تعود إلى القرون الوسطى أو أقدم .. حين كان الرومان يحتلون هذا المكان ..

كانت هناك فتحة فى جدار مهدم .. مد الغجرى يده وراح يعبث حتى أزاح بعض الأعشاب والنباتات التى تسدها .. وفى النهاية وجدوا أنهم يحدقون فى تابوت خشبى ردىء الصنع ..

تعاونوا على إخراجه من موضعه .. وهتف (جوناثان) وهو يتحسس الخشب بيده :

ـ « من جاء بهذا هنا ؟ لايبدو عتيقًا .. »

مد الغجرى أظفارًا كالمخالب وانتزع الغطاء .. كان غير مثبت .. وفى ضوء الشمس عرف (جوناثان) حقيقة ذلك الجسد المسجى بالداخل .. إنه (أولاف) .. كان نائمًا .. لا بل كان ميتًا .. لا بل كان (غير ميت) ..

وعلى شفتيه المسترخيتين كانت قطرات من دم لم يجف بعد ..

دم ليس دمه هو ..

* * *

قال الغجرى :

ـ « كما ترى .. لقد عاد بكل قواه .. طقوسكم أعادته للحياة .. لقد حسبتم أنكم تمثلون لكنه كان بحاجة إلى هذه الطقوس .. وهو الآن ينام هنا صباحًا ويجول فى المنطقة ليلاً ليظفر بأى عاثر حظ يقابله .. »

كان (جوناثان) يرتجف بالكامل ـ ومن يلومه على ذلك ؟ ـ لكنه قرر أن يحتفظ بدور (الرئيس) كما كان (أولاف) يناديه ، لهذا وقف ينظر إلى الجثة وسأل المساعد :

ـ « لا أفهم .. هل هذا هو الكونت (دراكيولا) ذاته ؟ هل هذا ما تحاول بيعى إياه ؟ »

قال الغجرى بعد ما سمع السؤال :

ـ « لا .. إنه تجسيد آخر له .. وقد وجدت القبر باستعمال عينى .. إن الطيور لا تحلق أبدًا حيث يوجد قبر مصاص دماء .. »

ـ « ولماذا لجأ لهذه الحيلة ؟ كان بوسعه أن يجد من يقوم له بهذه الطقوس بدلاً منا ؟ »

ـ « لم يكن ليجد من يقبل ، وما كان ليجد سبيلاً للدخول

إلى القلعة من دون مساعدتكم .. فى ذلك الوقت كانت قواه لم تتطور بعد .. كان بشريًا عاديًا .. »

- « ولماذا تخبرنى بهذا كله ؟ لقد حصلنا على الطقوس منك .. أى أنك فى صفه .. »

- « كنت مرغمًا على هذا .. أما الآن فلن أحمل على رأسى دم الضحايا الذين سيهلكون .. إننى أعترف بما فعلت .. وأطالب بتصحيحه .. »

- « ولماذا لا يبيت فى القلعة حيث تابوته ؟ »

- « لأن الزحام شديد بالداخل ، وهو معرض طيلة الوقت لمن يفتح التابوت من أجل التصوير .. »

وساد صمت ثقيل لا يقطعه إلا صوت أنفاسهم وصوت ذباب يحوم لا تعرف من أين أتى ..

فى النهاية قال (جوناثان) مطرقًا :

- « تتحدث عن إصلاح الخطأ .. كيف ؟ »

فتح الغجرى حقيبته وببطء - كما يفعل بائع فخور يعرض عليك ما بجعبته من تحف - أخرج مطرقة ووتدًا وسكينًا هائلة الحجم .. ثم نظر إلى (جوناثان) متسائلاً ..

هتف (جوناثان) فى ذعر :

- « أنت لن تفعل هذا ! هذه جريمة قتل ! »

قال المساعد فى رفق :

- « سيدى .. لا توجد محكمة فى العالم تتهم هذا الراقد فى التابوت بأنه مصاص دماء .. لكننا نعرف ذلك .. كلنا نؤمن بذلك الآن .. هل لديك شك فى حقيقة ما رأيناه ؟ »

هز (جوناثان) رأسه عاجزًا عن الإجابة بنعم .. عاجزًا عن الإجابة بلا ..

- « سيدى .. هذا هو الحل الوحيد .. »

هتف (جوناثان) فى رعب :

- « لن أفعل هذا .. لماذا لا يفعله هو ما دام مستريح الضمير ؟ »

- « إنه مستريح الضمير .. لكنه حسب أنك مهتم بمعرفة ما حل بممثلك الأول .. إنه ميت يا سيدى وقد دفن نفسه بالفعل .. لن نفعل أكثر من أن نصحح مسار الطبيعة ونريحه للأبد .. ولن يعرف أحد أننا فعلناها .. »

صرخ (جوناثان) وهو يدير ظهره :

ـ «أنتما مجنونان .. »

وسمع من وراء ظهره مساعده يقول فى تؤدة :

ـ «نحن فى (ترانسلفانيا) و(ترانسلفانيا) ليست (لندن) .. »

نفس الكلمة التى قالها الكونت (دراكيولا) فى قصة (ستوكر Stoker) الشهيرة ..

وسمع صوت شىء يدق على الوتد ، ثم سمع صوت العظام وهى تهشم واللحم وهو يتمزق .. كان هذا مريعًا .. لعل الصوت كان أشنع من المشهد ذاته ، لهذا راح يركض نحو المقطورة وهو يسد أذنيه ..

* * *

ظل طيلة اليوم فى المقطورة لا يغادرها ، زاعمًا أنه متوعك ..

لكن مشاهد النهار لم تفارق خياله ..

وعند منتصف الليل سمع من يطرق على الباب فهتف أن أدخل .. كان هذا مساعده الشاب (إيزاك) .. وقد بدا راضيًا عن نفسه والحياة برغم كل شىء ..

قال له وهو يجلس على المقعد الخشبى :

ـ « لقد أرحناه يا سيدى .. ثق من هذا .. »

لم يستطع (جوناثان) التخلص من فكرة أن هذا الفتى قطع رأس رجل وغرس وتدًا فى صدره هذا الصباح بالذات .. وبرغم هذا هو هادئ مرح .. سأله دون أن ينظر له :

ـ « هل دفنتموه حيث كان ؟ »

ـ « نعم .. لكننا حشونا فمه بالثوم .. لابد من هذا .. أحيانًا يحرقون الجثة لكن هذا كان سيلفت الأنظار .. »

ابتلع (جوناثان) قرصًا من المهدئ وقال :

ـ « جميل .. جميل .. لقد بحثنا عمن يمثل الكونت (دراكيولا) وجدنا واحدًا بارعًا .. ثم اتضح لنا أنه مصاص دماء فعلاً .. وأننا أعطيناه قدرة غير محدودة بسبب حماستنا البلهاء فى التصوير .. »

ـ « يبدو هذا يا سيدى .. »

ثم بعد قليل تساءل المساعد فى كياسة :

ـ « هل سنبحث عن ممثل آخر ؟ »

صاح فى هياج وهو يضرب المنضدة بقبضته :

ـ « ألم تفهم بعد ؟ لا أريد كلمة واحدة عن هذا الفيلم اللعين ! لقد انتهى عملى هنا ! انتهت قصتى ومستقبلى ! غداً ساجد عملاً فى مغسلة سيارات أو موزعًا للصحف ! ولا كلمة عن الفيلم اللعين ! »

قال المساعد فى رفق :

ـ « لا أريد أن أضايقك يا سيدى .. لكن هناك فرصًا أخرى .. لقد أجاد الغجرى تصور ما حدث .. لكنه أخطأ فى بعض التفاصيل .. الأمر لم يكن متعلقًا بمحاولة الكونت (دراكيولا) للعودة .. الأمر يتعلق بتلك العباءة التى كان الغجرى يحتفظ بها .. »

وطوح بالعباءة لتسقط عند قدمى (جوناثان) وأردف بلهجته ذات الطابع الشرق أوروبى :

ـ « كانت هذه عباءة مصاص دماء فعلاً .. ويبدو أنها كانت تحوى لعنة ما .. الغجرى لم يكن يعرف وقد تخلى عنها لى لأنه يجهل خطرها .. فقط كان يشمئز منها ولم يجسر على تجربتها قط .. حينما جاءك (أولاف) لم يكن مصاص دماء .. لم يكن متآمرًا .. كان مجرد شخص له منظر فريد ويريد أن يمثل فى فيلم أمريكى .. لكنه بدأ يتغير مع ارتداء العباءة .. لقد بدأ يتحول بالتدريج ، ولم يكن

لتلك الطقوس أى دور .. برغم أنها جعلته يفتح غطاء التابوت بقواه المخيفة .. والآن انظر لى يا سيدى .. »

رفع (جوناثان) وجهه ليرى أشنع منظر رآه فى حياته .. لقد تغير وجه (إيزاك) بالكامل .. هل كانت أذناه بهذا الطول ؟

منذ متى كان له نابان يوشكان على تمزيق شفته السفلى ؟

قال (إيزاك) وهو يبتسم تلك الابتسامة القذرة التى تجيدها المسوخ :

ـ « أنا جربت العباءة أمام المرآة على سبيل الدعابة .. ومن هنا عرفت السر .. وقد اكتمل تحولى الليلة .. »

وثب (جوناثان) فوق فراشه وراح يبكى بصوت مبحوح متقطع .. لقد فقد القدرة على الصراخ ..

قال (إيزاك) :

ـ « بدأت اليوم بالتخلص من منافس لى .. لكن لا تخف يا سيدى .. سوف أتركك وأبحث عن دماء أخرى .. أحب أن أبدأ حياتى كـ (فامفيرى) بدماء رومانية خالصة .. لكنى أنصحك ألا تلعب بالنار كثيرًا .. وأنصحك كذلك بالتخلص من هذه العباءة .. إنها لعنة تتوارثها الأجيال .. فلا تدع أحدًا يعشها من بعدى ! »

ورفع (جوناثان) عينيه المخضلتين بالدموع ، فلم ير (إيزاك) ..

فقط خيل له أن وطواطًا يحلق خارجًا من المقطورة ..

من يدرى ؟ لربما كان واهمًا فى هذا .. إن تأثير الدموع على البصر قد يكون غريبًا ..

★ ★ ★

الواجهة الثانية

ابن (أبراكساس)

- ١ -

مد (مازن) يده ففتح الواجهة .. وتناول منها العباءة السوداء ، وفردها على ساعده كما يفعل تاجر الجلود بقطعة من جلد ثعبان ، وقال فى تأمل أقرب إلى التلذذ :

- « ما رأيك ؟ هل تصدق هذا ؟ »

أجبت عن سؤاله بسؤال آخر كما يفعل أى لص احترف التحقيقات فى المخفر :

- « وكيف عرفت أنت هذه القصة ؟ »

- « أنا لست من الهواة يا دكتور (رفعت) .. قلت إننى قضيت حياتى بحثًا عن الحقيقة .. وها هى ذى الحقيقة .. »

- « تبدو لى حقيقة غريبة مغبرة نوعًا .. »

قال ضاحكًا :

- « هل نجرب ارتداء هذه العباءة ؟ ها هوذا السؤال ماثل أمامك .. إن تحولت إلى مصاص دماء فالقصة صادقة ، وإن لم أتحول فهذه أكذوبة أخرى .. لا أنكر أن الموضوع قد اكتسب صبغةً غير مريحة ، وأن هذه العباءة صارت تزن أطنانًا بكل ما اكتسبته من هالة نفسية .. »

- « وهل جرؤت أنت على ارتدائها ؟ »

ابتسم ابتسامة غامضة ، ولم يرد .. فقط اتجه إلى الواجهة الأخرى .. وقلت لنفسى : لقد ارتداها .. بالتأكيد ارتداها .. لكن ماذا كانت النتيجة ؟

وأمام الواجهة الثانية وقف لحظة ، ثم أشار إلى محتواها .. هناك جنين كامل محفوظ فى سائل الفورمالين .. لا مشكلة هنا .. الأمر أقرب إلى متحف الطب الشرعى فى أية كلية طب بها متحف طب شرعى .. لكن لا بد أن هناك قصة ما تحيط بهذا الجنين ..

وقال بنفس الصوت الخفيض الغليظ :

- « النوع التالى من الرعب هو رعب ستتعرف طرازه على الفور .. »

* * *

قال (مازن) :

حين تزوجت (هالة) كانت سعيدة بحق ..

(هالة) مهندسة شابة رقيقة من الطراز الذى لا يعتقد أن فى العالم أى نوع من الشر .. وأحيانًا كان يخطر لأهلها أنها

تعانى نوعًا خاصًا من الغباء .. تكلمها عن المذابح .. عن السرقات .. عن خيانة الأصدقاء فيتقلص وجهها فى ألم غير مصدقة .. ثم تنسى الموضوع بعد ثوان وتثق بالجميع كما كانت دومًا ..

بالنسبة لأبيها كان هذا نوعًا خاصًا من التخلف العقلى الذى لا يمكن قياسه علميًا .. كان مستشارًا متقاعدًا وقد عاش حياة حافلة رأى فيها النفس البشرية فى أشنع حالاتها .. باختصار لم يعد يثق بأحد على الإطلاق ، وأعاش أولاده فى قوقعة بعيدًا عن عالم الواقع تمامًا .. لكنه الآن صار فى حاجة إلى أن يخبرهم بتلك الحقيقة : إنه عالم قاس شرير ذلك الذى ينتظركم بالخارج ..

لكن دروسه ظلت عسيرة على أفهام أولاده .. وكان هذا يثير جنونه ..

ذات مرة سمع باب الشقة يفتح ، فنظر إلى المنبه المضىء بجوار الفراش ، ليجد أنها الرابعة صباحًا .. من يفتح الباب فى الرابعة صباحًا ؟ أيقظ امرأته فى هلع ، وركض ليبحث فى الشقة .. هنا كان الخبر المروع .. إن (هالة) ابنة الخامسة عشرة ـ وقتها ـ ليست فى الدار ..

هبط فى الدرج يبحث عنها حافى القدمين وبمنامته ..

خرج إلى الشارع المظلم الساكن .. وراح يناديها .. إن قلبه يتمزق جزعًا .. يتمزق فعلاً ..

فى النهاية وجدها راكعة على ركبتيها على الإفريز تنظر تحت سيارة واقفة .. لقد فرت قطتها من النافذة كعادتها فى الأشهر الماضية .. لكنها لم تعد حتى الساعة ، ومعنى هذا أن مكروهًا أصابها ..

تمالك أعصابه وراح يرتجف كورقة .. ثم مد يده تحت السيارة فلمست كتلة الفراء الساخنة الغاضبة .. حملها فى غل عائدًا إلى الدار وهو لا يصدق .. فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها تغادر الدار فى الرابعة صباحًا من أجل قطة .. أى جنون ! أى غباء ! أى بعد عن الواقع !

مشكلة هذه البلهاء أنها لا تعرف أى خطر هنالك فى الشوارع المظلمة .. تعتبر العالم كله مكانًا آمنًا مناسبًا للأطفال والفتيات والقطط ..

* * *

كبرت (هالة) وجاء ذلك الذى يعتقد أنها ممتازة لهذا ستكون زوجة صالحة له هو بالذات .. إن الرجل يبحث عن أفضل واحدة لمجرد أنه هو ، ولا يفكر لحظة إن كان هو الآخر أفضل واحد أم لا .. فلابد أنه كذلك ..

لكن (كمال) كان هو الأفضل فعلاً ..

كان (كمال) مهندسًا ، وكان على درجة من الثراء سمحت له بأن يدرس فى الخارج .. رجل وسيم هو ، وعلى درجة من الثراء والتهذيب .. لهذا كانت محاولته الأولى للزواج هى الأخيرة ، لأنه ما من أسرة بكامل قواها العقلية ترفضه .. وبالنسبة للأب بدا له الفتى بلا غبار عليه .. فقط هو يهوى المزاح أكثر من اللازم ، لكنه بالتأكيد يمكن أن يحل محله فى رعايتها ..

وكما اتفق الجميع ، كان سيتزوج ثم يأخذ زوجته معه إلى ألمانيا الشرقية حيث يدرس ويعمل .. فى تلك الأيام كان كل مهندس يذهب إلى ألمانيا الشرقية يومًا ما ..

وتم كل شىء .. دموع كثيرة ذرفها الجميع وهى تصعد سلم الطائرة بثوب الزفاف مضفية لمحة درامية ما على المشهد .. وكان عليها للمرة الأولى فى حياتها أن تبدأ وحدها ..

لم ينغص ليلة الزفاف الأولى خارج الوطن إلا شىء واحد .. شىء بسيط فى الواقع ..

فى الليل كانت تشعر بظمأ شديد ، فنهض زوجها المحب

يحضر لها كوبًا من الماء من المطبخ .. وأثار دهشتها أنه يتحرك بسلاسة تامة فى الظلام .. لم يتعثر مرة ، ولم يرتطم بشىء مرة .. لا غرابة فى هذا ، على كل حال لو كان هذا بيته .. لكنها شقة استعارها من صديق مصرى ، إلى أن يفرغ من استكمال شقة الزوجية .. بعبارة أخرى كان يجرب المشى هنا لأول مرة ..

وفى الصباح كان فى الحمام ، فجربت بنفسها أن تغمض عينيها وتمشى فى المسار ذاته فاصطدمت بألف قطعة أثاث وكادت تحطم عنقها ..

فجأة شعرت بأنها تغوص بين ذراعين قويتين ، فأجفلت وفتحت عينيها لتجده ينظر لها فى ثبات ضاحكًا :

ـ « ماذا تحاولين عمله ؟! »

شهقت فى رعب .. ثم ضحكت وقالت :

ـ « أحاول أن أعرف كيف تمشى فى الظلام الدامس فى هذه الشقة .. »

اعتصر أذنيها فى رفق كأنها طفل شقى وقال :

ـ « ملاك صغير هو أنت .. لهذا اخترتك .. لهذا همت بك حيًا .. »

كانت هذه إجابة كافية على كل حال ..

أحبت (برلين) وأجادت اللغة الألمانية إلى حد ما .. وصارت لها صديقتان أو ثلاث ..

الأولى تدعى (إتريكه) والأخرى (هيلدا) .. وكانت الأولى تعمل مع زوجها من قبل .. أما الأخرى فجارتها فى البناية التى تسكن فيها .. صديقتان لطيفتان جدًا لو طلبت رأيى ..

الحادثة الثانية كانت (هيلدا) طرفًا فيها ..

كانت (هالة) وزوجها جالسين يتناولان طعام الغداء .. طعامًا صميمًا برعت هى فى إعداده وأحبته صديقتاها .. هنا سمعا صوت صراخ يمزق السكون .. كان آتيًا من الشقة المجاورة ..

وثب زوجها وبأربع خطوات واسعة كان عند باب الشقة المجاورة .. فتحه واندفع إلى الداخل ..

(هيلدا) تقف على باب الحمام تعوى كالذئاب .. الحمام له نافذة من الزجاج المصنفر تتراقص من ورائه تلك الزهرة البرتقالية المخيفة .. لا يحتاج الأمر إلى أن تكون عبقريًا كى تعرف أن هناك حريقًا وأن هناك شخصًا بالداخل ..

نظرة تبادلها الجميع .. فهتفت (هيلجا) وهى تركل الباب بساقها بعنف :

ـ « (كارل) بالداخل ! لابد أنه سخان الغاز ! إنه لا يرد ! »

هتفت (هالة) والطعام الذى كانت تمضغه يتساقط من فمها :

ـ « المطافئ ! لماذا لا ؟ ماذا عن ؟ »

لكن زوجها كان أسرع من المطافئ وأكفأ .. أدار المقبض بعنف فانفتح .. ثم ـ قبل أن تفهم ما يحدث ـ اجتاز الباب ، وبعد دقيقة كان قد غاب وسط ألسنة اللهب ..

ـ « يا أحمق ! انتظر ! أنت لن .. »

قبل أن تكمل العبارة كان يخرج من وسط اللهب سليمًا تمامًا وهو يحمل الأخ (كارل) بين ذراعيه .. لم يكن (كارل) قطة صغيرة خفيفة الوزن ، لكن (كمال) أيضًا لم يكن ضعيفًا .. لقد شق طريقه إلى الخارج ، وهتف فى جنون :

ـ « ماء !! أريد ماء ! »

وألقى بالزوج على الأرض .. كان هذا الأخير ما زال بثيابه كاملة لحسن حظه .. لابد أنه أوقد السخان وتأهب لنزع ثيابه حين حدث ما حدث .. وكانت الثياب كلها تحترق فى حماسة غريبة ..

هرعت الزوجة من المطبخ حاملة دلوًا من الماء تساقط أكثره على الأرض .. وأفرغته مرة واحدة على زوجها .. وسرعان ما تحولت ثيابه إلى عجينة من الرماد المبتل ..

ـ « أطلبى المطافئ الآن .. »

وحينما جاء رجال الإطفاء أخيرًا أثنوا على (كمال) بشدة ..

بينما وقفت (هالة) ترمقه فى انبهار .. كان يقف لامعًا عريض المنكبين .. منهكًا بشكل رجولى .. تفوح منه رائحة الشياط وقد تفحم نصف شاربه ، لكنه ـ كذا خطر لها ـ كان رائعًا .. الرجال يبدون رائعين حين تلوح عليهم علامات المعاناة والصراع .. إنه النسر المصرى الذى جاء عبر البحر المتوسط لينقذ ابن الراين .. كذا فكرت وهى تتأمله فى افتتان تام ..

رباه ! لكم أنا محظوظة !!

* * *

ـ ٢ ـ

قال (مازن) :

فى اليوم الذى تلا عودة (كارل) من المستشفى أصر الزوجان على دعوة (كمال) و(هالة) إلى بيتهما للاحتفال .. وقد قبلا على الفور .. كان الجو العام ـ كما لك أن تتوقع ـ هو مزيج من الامتنان من جهة والفخر المهذب من جهة أخرى ..

وقال الزوج وهو يتحسس الضمادات على أعلى صدره :

ـ « سخانات الغاز هذه لا تؤدى أى عمل إلا أن تنفجر فى وجهك .. من حسن الحظ أن زوجك كان هنا .. »

وبدأت المأدبة العامرة بالطعام الألمانى كريه المذاق .. لم يتفق الأوروبيون بعد على ما إذا كان أسوأ طعام هو الألمانى أو البريطانى ، لكنهما متقاربان جدًا فى هذا اللقب الفريد ..

وفى المطبخ وقفت (هالة) مع جارتها الألمانية تحاول أن تكون مفيدة .. الحقيقة أن إجادتها للغة لم تصل لهذا الحد بعد ، لكنها كانت تحاول جاهدة ، وكان الألمان الذين يكلمونها يضغطون تلقائيًا على كوابح ألسنتهم ليخرج الكلام أبطأ وأوضح ..

قالت (هيلدا) وهى تقطع كعكة كبيرة :

ـ « إن زوجك رائع وأراهن على أنك فخور به .. »

فى صدق وحرارة قالت (هالة) :

ـ « بالتأكيد .. »

ـ « هل يحبك كثيرًا ؟ »

ابتسمت (هالة) فى خجل .. هذه أشياء لا تسأل ولا يرد عليها .. هذا يشبه سؤالك (هل ستدخل الجنة ؟) .. طبعًا أنت تتمنى ذلك ، لكنك لا تملك القرار ولا تملك الإجابة .. فقط تحاول ..

نقلت (هيلدا) شريحة كبيرة إلى طبق ، وقالت :

ـ « هل هو ساحر ؟ »

ـ « إنه كذلك .. »

ـ « أحدثك بالمعنى الحرفى للكلمة .. هناك أشياء غريبة لاحظتها فى لحظة الحريق .. أشياء أردت أن أفهمها منه .. مثلاً كيف استطاع فتح باب الحمام ؟ لقد كان موصدًا بإحكام من الداخل .. كيف اخترق النيران وعاد دون أن يحترق شىء ما عدا نصف شاربه ؟ »

فكرت (هالة) .. حقًا خطر لها هذا السؤال لكن الأحداث كانت متلاحقة لا تسمح لك بإدارة الأفكار فى فمك لتحسن تذوقها .. إنه قام بما يشبه المعجزة .. بل هى معجزة .. فهل يقلل من شأنها أنها كانت معجزة أكثر من اللازم ؟

وهكذا عادا إلى غرفة المعيشة ، وإن خطر لها أن الغيرة ليست بالشىء المستبعد حتى على زوجة ألمانية .. إن الغيرة قد تتخذ شكلاً مخادعًا لا تميزه بسهولة .. قد تتخذ شكل موضوعية مبالغًا فيها ..

★ ★ ★

فى السوبر ماركت وقفت (هالة) مع (إنريكه) تنتظران دورهما للدفع .. كانت (هالة) مرتبكة لأنها لم تتعامل قط مع (سوبر ماركت) من قبل(*) .. وهو سوبر ماركت اشتراكى فقير جدًا يشبه محل بقالة مما نراه اليوم ، لكنها لم تر مثله من قبل على كل حال .. وكانت المعلبات الكثيرة تسبب لها الارتباك وقد اكتشفت أنها وضعت علبتين من اللحم المحفوظ المخصص للقطط فى السلة ..

قالت لها (إنريكه) ضاحكة :

ـ « زوجك من هواة أطعمة الحيوانات المحفوظة هذه ..

(*) لا تنس أننا نتحدث عن زمن قديم .

كما أنه يبتاع كميات لا تصدق من اللحم .. هل لديكما أسد فى بيت الزوجية ؟ »

بدا عليها الارتباك .. لايوجد لديهما أى حيوان فى الدار .. فمتى وكيف ابتاع زوجها هذه الأشياء ؟

قالت (أنريكه) وقد وقفت أمام الصراف :

ـ « كان يشترى أشياء غريبة جدًا قبل قدومك إلى هنا .. كنت أتسوق معه من حين لآخر .. وكان يقول إن هذه الأشياء للكلب .. »

ـ « لم يكن لديه كلب قط .. لا الآن ولا قبل قدومى .. »

ابتسمت (إنريكه) فى رفق ، وهزت رأسها بمعنى أن الزوجات قد يعرفن كل شىء فى العالم إلا أزواجهن .. وهكذا توارت هذه الذكرى لتتخذ مكانها على رف الأرشيف .. الأرشيف الذى سيفتح فى لحظة معينة كى يجيب عن أسئلة عديدة ..

* * *

ـ « لم يكن عندى كلب قط .. هذه المرأة تخرف .. »

قالها فى ثقة منهيًا هذا الجزء من المناقشة ، وراح يتحسس شاربه فى عصبية وهو لا يرفع عينيه عن الجريدة ..

قالت له فى كياسة :

ـ « إذن ماذا نفعل بكل هذا اللحم الذى تشتريه ؟ »

لم يرفع وجهه عن الجريدة وقال بنفس اللامبالاة :

ـ « لم أشتر لحمًا بكميات ، لكن لو فعلت .. فما المشكلة فى إنسان أكول ؟ لاحظى أننى لم أفعل هذا قط منذ جئت إلى هنا .. »

ـ « هذا حق .. »

مع امرأة أخرى كانت هذه الإجابات ـ التى لا تسمن ولا تغنى من جوع ـ غير كافية ، لكنها بالنسبة لـ (هالة) البريئة التى تعتقد أن أفظع شخص قابلته فى حياتها هو نفسها ، كانت إجابات مقنعة جدًا وكافية جدًا ..

وهكذا جلست تشاهد التلفزيون شاعرة برضا تام عن الحياة .. بدأت تكتب خطابًا لأمها تحكى فيه كم هى سعيدة .. كم هى راضية .. كم هى محظوظة ..

إنها نائمة الآن .. ظلام دامس .. هدوء محبب .. تشعر بأنفاسه المنتظمة بقربها .. إنه ينهض .. إلى أين ؟ لا شك إلى الحمام .. تريد أن تتكلم لكنها واهنة جدًا ومفككة الأوصال جدًا ..

هل هذا صوت باب الشقة ؟

نعم .. إنه يفتحه .. لكنها لا تريد النهوض .. لا ترغب فى النهوض .. إنها تنزلق من حين لآخر إلى ما (خلف جدار النوم) كما يقول (لافكرافت Lovecraft) ثم تعود إلى ما أمامه .. حلم غريب .. هناك ضيوف .. هناك حفل .. مأدبة .. كل شىء جميل وهى مسرورة ، فيما عدا تفصيلاً بسيطًا .. إنها هى الوجبة الأساسية لهذا الحفل !

الضيوف هم (هيلدا) و(أنريكه) وآخرون .. زوجها يقف وسطهم يقطع أوصالها بالسكين ، ويقدم لكل واحدة قطعة فى طبقها .. المخيف هنا أنها راضية .. أنها مسرورة .. أنها ترحب بمن يأكلونها كأنها ربة بيت حريصة على إرضاء ضيوفها ..

ثم تعود إلى ما أمام جدار النوم فتسمع زوجها يتكلم مع أحدهم .. من هذا ؟ من هو ؟ ثم تنزلق من جديد خلف الجدار لتعاود الحلم .. ثم .. لا شىء ..

إنه الظلام الدامس هذه المرة ..

* * *

فى الصباح لم تكن تشعر بأنها على ما يرام ..

ذهب زوجها إلى العمل ، على حين جلست هى أمام التلفزيون تشاهد برامج الأطفال .. خطر لها أن تتناول الإفطار لكن الفكرة جعلت العصارة الحمضية تصعد إلى أعلى مريئها ..

هل هى حامل ؟ ارتجفت للفكرة .. بالنسبة لها كانت هذه آخر فكرة ممكنة فى العالم .. طفل حى يصرخ ويبكى ويرضع يخرج من أحشائها هى ؟ هذا نوع من الخيال العلمى لا شك فيه ..

دق جرس الباب ففتحته ..

على الباب كانت جارتها (هيلدا) .. وهى كما نعرف لا تعمل هى الأخرى .. هكذا يبدأ حفل الزوجات الذى يتميز بالنميمة كطقس أساسى .. لم تكن (هالة) من الطراز الذى يشكو زوجها .. أولاً لأنها لم تجد فيه عيوبًا حتى الآن .. ثانيًا لأنها ليست من هذا الطراز .. يمكن أن تجلس لتمتدحه وعينها متورمة زرقاء من لكمته ، أو وهى تضع قطعة ثلج على خدها لتخفف من آلام صفعته لها ..

كانت جلسة طويلة عرفت فيها كل شىء عن عادات (كارل) وطباعه .. عن طفولته ومراهقته وأمراضه ..

فى وسط الكلام قالت الصديقة الألمانية بشكل عابر :

ـ « لا أحب التدخل فيما لا يعنينى .. لكن ما سر هذه الزيارات الليلية ؟ »

ـ « زيارات ليلية ؟ »

ـ « هؤلاء القوم الذين يأتون بعد الثانية صباحًا لداركم .. إننا

نسمعهم .. أعترف أنهم لا يحدثون صخبًا لكن هذا غير مريح .. خاصة أننى لمحت وجوههم من فرجة الباب .. لا يوحى مظهرهم بالراحة أبدًا .. »

قشعريرة عبرت ظهر (هالة) وهى تسمع هذه الكلمات ..

هل هذا صوت باب الشقة ؟

نعم .. إنه يفتحه .. ثم تعود إلى ما أمام جدار النوم فتسمع زوجها يتكلم مع أحدهم .. من هذا ؟ من هو ؟

لم تكن تخرف إذن .

بالفعل هناك من زارهم ليلًا .. وهو يحرص على أن يزيل أى أثر لزيارته بعد رحيله .. يزيله بدقة لا توصف ، لأن الشقة فى الصباح تبقى كما هى ..

ولكن كيف ولماذا ؟ أشد ما يثير الضيق فى هذه الأمور أن تشعر بأنك آخر من يعلم .. لهذا شعرت بمقت شديد لـ (هيلدا) وتمنت لو تخرس قليلًا ..

قالت لها (هيلدا) وقد لمحت حيرتها الواضحة :

- « واضح أنك لا تعرفين شيئًا عن الموضوع .. على كل حال يجب أن أقول إنك تثقين بزوجك أكثر من اللازم .. ولو كنت مكانك لفتشت حاجياته بعناية .. ولظللت ساهرة أنتظر .. »

- « سأسأله .. هذا سهل .. »

- « ما دام أنكر حتى الآن يا صغيرة فلسوف ينكر إلى الأبد .. »

وصمتت (هالة) وراحت تراقب المرأة على الشاشة وهى تعد نوعًا ما من الحساء .. تتكلم لكنها لا تفهم حرفًا من كلامها ..

لكنها لم تسأله عن شىء ..

للمرة الأولى فى حياتها تصرفت بخبث وكتمان ..

إلا أنها لم تصح قط فى الليل كى تحضر هذه الزيارة الغامضة .. دومًا كانت تنام كلوح الخشب إلى أن يشرق النهار ، وعلى كل حال كانت قد بدأت تنسى تلك الكلمات المسمومة التى سمعتها .. وعامة حرصت على أن تتجنب لقاء (هيلدا) أو التعامل معها .. هذه المرأة على أسوأ حال من الخلاف مع زوجها ، وبالتأكيد صممت على أن تهدى للوجود هدية هى المزيد من المقت ..

مرت الأيام وجاء اليوم الموعود ..

لقد كانت تلاحظ ذلك الانتفاخ فى بطنها لكنها لم تعره اهتمامًا بالقدر الكافى .. ثم صار الأمر حقيقيًا لا ريب فيه .. ذهبت إلى المستشفى وهناك حللوا بولها وأخبروها بأنها حامل ..

هذا يفسر كل ما كانت تمر به من مقت للطعام ومن حموضة ، ومن قىء صباحى ..

إنها ستصير أمًا .. هى الطفلة الخائفة ستصير أمًا لطفلة خائفة أخرى ..

حين عاد (كمال) من العمل ، راحت تلعب دور الزوجة اللطيفة فى الأفلام المصرية .. لدى مفاجأة لك .. اليوم شعرت بتوعك .. ذهبت للطبيب .. قال لى .. إنك .. بعد أشهر .. سوف ..

قاطعها فى نفاد صبر :

- « حامل ؟ أعرف هذا .. لا داعى لهذه المقدمات .. »

شعرت بخيبة أمل .. كانت تتوقع أن يكون رقيقًا ويقبل بلاهتها هذه .. وأدرك أنه جرحها فقال فى رفق :

- « يا ملاكى لا يحتاج الأمر إلى طبيب .. عروس شابة انقطع منها الطمث وتقىء يوميًا ويكبر بطنها يومًا بعد يوم .. فهل هذه مجرد غازات ؟ »

قالت لنفسها إن كلامه منطقى بلا شك ، وإن كانت تفضل أن يكون أكثر شاعرية ورقة ..

على كل حال جلست تكتب لأهلها هذه المفاجأة الصاعقة ، وبرغم كل شىء لم تنكر فى خطابها لحظة أنها سعيدة .. سعيدة أكثر من اللازم ..

★ ★ ★

- ٣ -

قال (مازن) :

بعد أشهر كانت فى السوبر ماركت مع (إنريكه) .. وكانت تبتاع ما يلزم من ثياب للفترة القادمة .. لقد اشترت ثياب الوليد وبعض الألعاب لحجرة نومه ، وكانت تسأل صديقتها باستمرار عما يخطر ببالها .. إن (إنريكه) أم مطلقة ..

لكن (إنريكة) لم تكن على ما يرام .. كانت شاردة ترد باقتضاب .. وفى مرة من المرات خيل لها أنها ترى دمعة فى عينها ..

فجأة قالت لها ونظرة غريبة فى عينها :

- « (هالة) .. نريد أن نتكلم فى مكان منعزل .. »

سقط قلبها فى قدميها ، فهى لا تحب أبدًا هذه المقدمات .. لكنها وافقت ..

وفى إحدى الكافتيريات الهادئة طلبت (إنريكه) لنفسها قهوة وابتلعت قرصًا مهدئًا أخرجته من حقيبتها ، ثم أشعلت لفافة تبغ - فهى من هذا الطراز - وقالت فى تؤدة :

- « هل قرأت قصة (طفل روزمارى Rosemarys Baby) ؟ »

هزت (هالة) رأسها أن لا .. بدا لها الاسم مألوفًا .. فأردفت (إنريكه) :

- « هذه من قصص الرعب الشهيرة جدًا .. وقد تحولت إلى فيلم بالغ النجاح أخرجه (رومان بولانسكى) .. إن القصة تدور حول زوجين اختارا لسكنهما بناية تعج بالسحرة .. هما لا يعرفان ذلك .. لكن الزوج ينقاد إلى الفخ ببطء شديد .. وهكذا تكتشف الزوجة أنها حامل .. لكن ليس من زوجها .. بل من الشيطان ذاته .. وأن الطقوس تقام كل ليلة حول جسدها الغائب عن العالم بفعل المخدر .. وفى النهاية تنجب .. تنجب ابنًا للشيطان ! »

اتسعت عينا (هالة) رعبًا .. لماذا تخبرها بهذا الكلام ؟

قالت (إنريكه) وهى تنفث الدخان بكثافة :

- « الحقيقة هى أن هذا السيناريو يتم تطبيقه معك حرفيًا .. إن (أبراكساس) يتردد على دارك كل ليلة ومعه أتباعه .. إن زوجك العزيز يقوم بتخديرك كل ليلة بقرص من المنوم يدسه لك مع العصير الذى تشربينه بعد العشاء .. »

- « (أبراكساس) ؟ »

- « نعم .. (أبراكساس) وهو من شياطين العالم السفلى .. أنت حامل منه يا صغيرة .. »

هبت (هالة) واقفة فى عصبية وأوشكت على الصراخ ، لكن يد (إنريكه) المعروقة قبضت على معصمها بقوة :

- « لا داعى للهستيريا .. لم نأت هنا كى نلفت الأنظار .. »

جلست (هالة) صورة مجسمة للغباء والبلاهة .. فأردفت (إنريكه) :

- « أنت حكيت لى عن زوجك .. كيف يمشى فى الظلام بلا عائق .. كيف اخترق النار والدخان وأنقذ (كارل) .. أنا حكيت لك عن كميات اللحم التى يبتاعها .. ألم تلحظى ذلك ؟ ألم تلحظى أنه متكامل إلى حد يصعب تصديق أنه بشرى ؟ الحقيقة أنك حمقاء .. لقد لمحت لك مرارًا وكذا فعلت (هيلدا) إلى الحقيقة لكنك لا تريدين الفهم .. الحقيقة أننا من أتباع هذه الجماعة السرية التى تحاول إعادة (أبراكساس) إلى العالم ، والتى زوجك عضو فيها .. لكنك بريئة جدًا طاهرة جدًا ، وبصراحة لم تعد واحدة منا ترغب فى أن تدفعك أنت بالذات لهذا الدور القذر .. لهذا أنصحك بشىء واحد : فتشى حاجياته جيدًا .. ابحثى مرارًا .. هذه الليلة بالذات لا تشربى العصير .. يجب أن تعرفى من يدخل بيتك ولماذا .. فإن كان كلامنا صحيحًا فعليك بالفرار بأسرع وقت .. ربما تولت سفارتكم حل هذه المشكلة .. »

ثم أفرغت باقى قدح القهوة فى فمها ، وأخرجت ورقة مالية دستها تحت الطبق ، وغادرت المكان من دون كلمة واحدة ..

★ ★ ★

لو أن (إنريكه) فجرت لغمًا تحت المنضدة ، أو أوصلت سلكًا كهربيًا عالى الجهد بأصابع قدميها وأولجت الفيشة فى القابس ، لما أحدثت كل هذا التأثير لدى (هالة) ..

كأنها نملة عادت (هالة) إلى دارها .. احتاجت إلى وقت لا بأس به حتى تجد المكان ..

دخلت الشقة شاردة .. ظلت تدور حول نفسها ساعة على الأقل وتمشى من غرفة لأخرى .. فى النهاية وجدت أنها تتجه كالمنومة مغناطيسيًا إلى غرفة مكتب زوجها ..

وقفت وراء المكتب لحظات ، ثم فتحت الدرج الكبير .. إنه يضع فيه المفتاح الذى يفتح الأدراج الصغرى .. هى تعرف هذا وهو يعرف أنها تعرف ، لكنه يثق بها ويعرف أنها أطهر من أن تتسلل لتتفحص أسراره ..

أخرجت المفتاح وعالجت الدرج الأول ..

انفتح ..

لا شىء ..

الدرج الثانى .. به ..

به أشياء تخصها .. هذا هو الجورب الذى لا تفهم كيف أضاعته .. هذا هو دبوس الشعر الذى اختفى فجأة .. هناك عدة صور لها .. من أين أتى بها ؟ إنها تخصها حين كانت فى مصر .. صور من المدرسة الثانوية .. لابد أنه أخذها من أهلها ولم يخبرها .. ثمة دمية صغيرة مصنوعة من القماش المخيط .. ما معناها ؟ هناك شعيرات على رأس الدمية .. ملتصقة به كأنه

شعرها هى .. الحصول على هذه سهل لأنها تحرص على قص الخصلات الزائدة ، وأحيانًا تهمل التخلص منها ..

ثمة علبة أقراص كتب عليها (باربيتيوريت) .. هى تذكر الاسم .. إنه منوم كان أبوها يتعاطاه أحيانًا ..

هناك لوحة ملفوفة حول نفسها .. فتحتها فوجدت ذلك الرمز المخيف .. النجمة الخماسية وحولها كلمات بلغة لا تعرف ما هى ..

لا تفهم أكثر هذه الأشياء .. لكن القصة واضحة ..

★ ★ ★

ـ « ملاك صغير هو أنت .. لهذا اخترتك .. بهذا همت بك حبًا .. »

★ ★ ★

المهندس المصرى الشاب تورط فى خبرة مريعة حين ذهب إلى ألمانيا .. ووعد جماعته بأن يذهب إلى مصر ليعود بعروس (أبراكساس) .. إن ما تراه فى الدرج لغامض لكنه يخبرها بوضوح أنها هدف لعمل سحرى ..

فى المساء عاد .. كان ضحوكًا متألقًا ، أما هى فكانت فى أسوأ حال .. لكنها قررت ألا تثير ريبته بأى شكل ..

راح يتناول العشاء ويثرثر ، ثم نهض كعادته إلى المطبخ

ليعد لهما العصير .. للمرة الأولى تفطن إلى أن هذه عادته وأنه حريص عليها .. عاد حاملا الكوبين وبحرص وضع كوب اليد اليمنى أمامها واختار هو كوب اليد اليسرى ..

- « لا أريد أن أضايقك .. لكنى أطمع فى مزيد من التدليل .. »

- « قولى ما شئت .. فأنت الحامل لا أنا لو لم تخنى الذاكرة .. »

- « نسيت إحضار الفاكهة من الثلاجة .. فهل جلبت لى بعضها ؟ »

هكذا انصرف ، وهكذا وجدت وقتًا كافيًا كى تتخلص من العصير .. أين ؟ أين ؟ المزهرية الموضوعة على المنضدة ..

فى اللحظة المناسبة قبل أن يعود ، وحين عاد كان كوبها فارغًا وهى تمسح شفتيها فى امتنان ..

بعد دقائق أعلنت أنها راغبة فى دخول الفراش ..

بدأ يخلى المنضدة من الأطباق .. على حين اتجهت إلى الحمام لتغسل وجهها ، ثم دلفت إلى الفراش .. وبعد دقائق تعالى صوت تنفسها المنتظم ..

لن تنام .. مهما كان الإغراء فلن تنام .. يجب أن تعرف .. أناملها تعتصر السكين تحت الوسادة .. السكين التى أخفتها فى الحمام ثم تحت الروب ..

لابد أنها استعادت ذكريات شبابها كاملاً وحينما نظرت إلى

المنبه جوار الفراش .. إنها الثالثة صباحًا .. هو يرقد جوارها ويبدو نائمًا فى عمق ، وهى لا تجرؤ على أن تتحرك ..

الآن ينهض ببطء .. الآن يمشى فى الخارج .. الآن يفتح باب الشقة ..

هذه هى اللحظة التى تعرف فيها كل شىء ..

كانت تشهق فى انفعال .. ترتجف كورقة .. لكن أذنيها مرهفتان كقط صغير ..

تسمع صوت أناس يتكلمون بالخارج .. رجال ونساء يتحدثون .. زوجها يقول :

- « إنها نائمة .. لا تقلقوا .. خذوا راحتكم .. »

صوت غليظ يقول :

- « إذن ماذا تنتظر أيها البشرى ؟ »

زوجها يقول لصاحب الصوت فى لهفة :

- « أنت سيدى .. أنت سيدى .. إن الشرف يغمرنى .. »

ثم صوت واحدة .. تبًا .. إنها هى (هيلدا) ذاتها .. تقول :

- « خذوا الحذر .. لقد بدأت تشعر بريبة .. »

الصوت الغليظ يقول :

- « إن البذرة فيها الآن .. لا أحد يقاوم (أبراكساس) أبدًا .. »

الآن كانت تبكى بلا انقطاع .. وصار جسدها متوترًا كأنه وتر القوس ..

الأصوات تدنو .. والصوت الغليظ يقول :

ـ « هلموا يا أبنائى لنبدأ الطقوس .. »

يقول زوجها :

ـ « بالمناسبة .. هى متيقظة الآن وتتابعنا ! لقد أفرغت كوب العصير فى المزهرية بينما كنت أنا فى المطبخ ! تحسبنى لم ألحظ ذلك ! »

إنهم على باب الغرفة الآن ..

إنهم ..

وفى اللحظة التالية وثبت من الفراش .. اندفعت كالسهم نحوهم ..

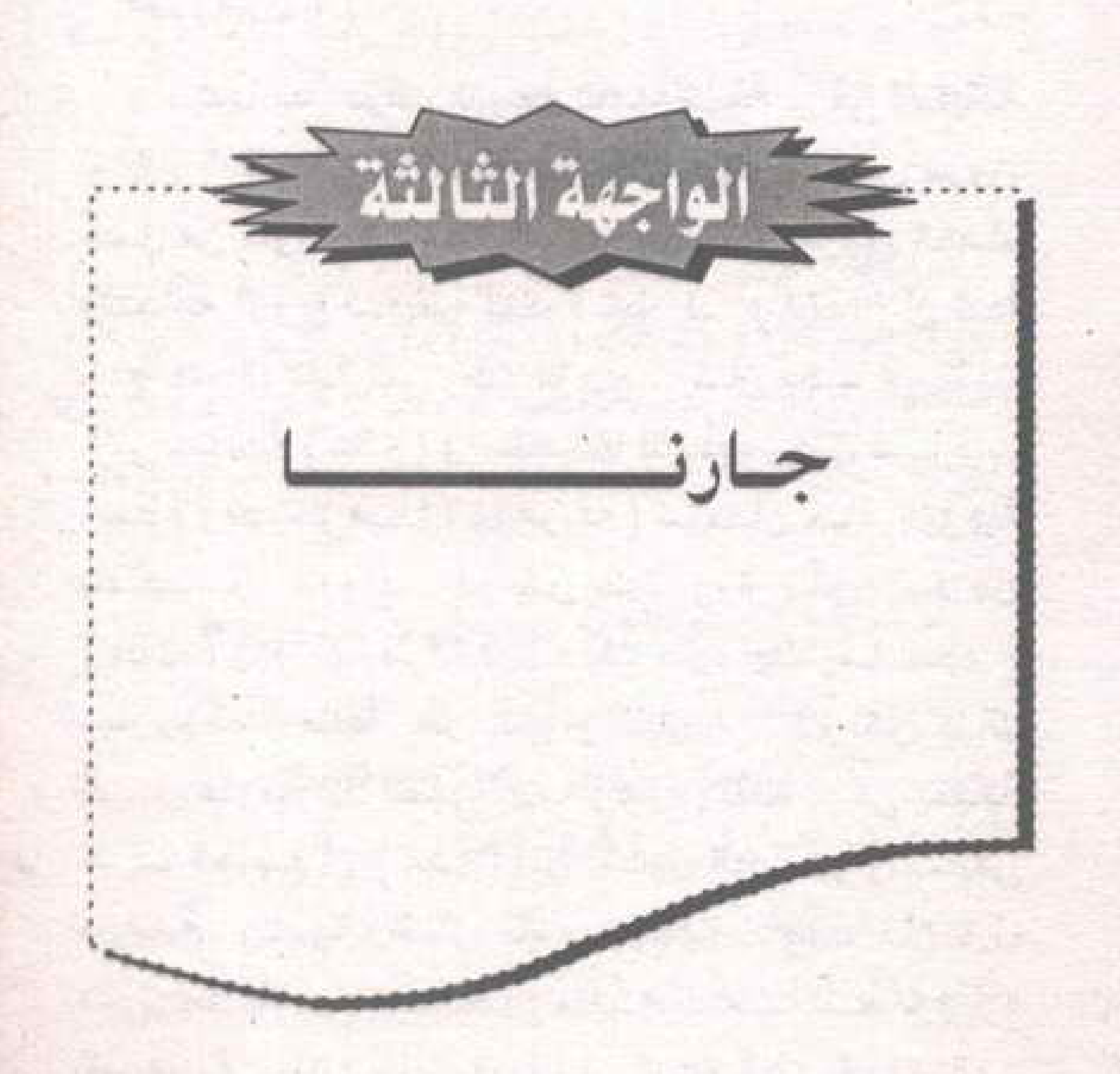
لم تستطع إلا أن ترى زوجها وسط بعض الناس ، وكان ينظر لها بدهشة .. وفى اللحظة التالية وثبت فوقه كقطة مسعورة ، وغرست السكين فى عنقه ..

غرسته .. غرسته .. غرسته .. وشعرت بالزوج يتهاوى كالبالون المثقوب أمامها ..

وقبل أن تغيب عن الوعى سمعت (هيلدا) تصرخ فى هستيريا :

ـ « ماذا فعلت يا حمقاء ؟! هذه كانت دعابة .. مجرد دعابة ثقيلة ! إن زوجك يهوى الدعابات ! »

★ ★ ★



-١-

قال (مازن) :

- « فيما بعد عرفت الزوجة القصة كاملة .. فى الحقيقة لم يكن المشى فى الظلام موهبة ما .. هناك أشخاص يرون أفضل من سواهم فى الظلام .. بعد موضوع حريق الحمام وشجاعة الزوج الحقيقية النادرة خطر لـ (هيلدا) أن تبدأ نسج هذه الدعابة التى راقت للزوج .. كان يجب أن يتندر على سذاجة (هالة) واستعدادها لتصديق كل شىء .. وببطء راحت (هيلدا) و(إنريكه) تسممان حياة الزوجة بأكاذيب عن الزوج .. لم يكن هناك زوار يأتون ليلاً بل (هيلدا) وزوجها طرقا الباب ذات مرة ليكلمهما الزوج ويغرسا قصة ملفقة عن الزوار الليليين .. لم تكن هناك أقراص منومة ليلاً لكنهما أقنعا (هالة) بذلك .. فى النهاية عرف الجميع أن (هالة) لن تتناول العصير وستبقى متيقظة ، ولسوف تفتش مكتب زوجها .. طبعًا كان كل شىء معدًا كى تجد ما وجدته .. هنا تتم الزيارة المرهوبة .. لكنهم لم يقدروا أن الدعابة قد تتحول إلى مأساة ، وأن الشخص الرقيق كالزوجة يمكن أن يتوحش عندما يقتله الرعب .. »

قلت له وأنا أبتلع ريقى الذى جف :

- « دعابة ثقيلة جدًا ، وأشعر أن الزوج استحق الذبح فعلاً .. كما أرى أن (هيلدا) و(إنريكه) كانتا بالفعل تحقدان بشدة على الزوجة المصرية الهائنة .. »

هز رأسه موافقًا .. ثم أضاف :

- « لكن الأمور ليست بهذا الوضوح دومًا .. هنا يبرز سؤال مهم عن كيف فتح (كمال) مقبض الحمام ؟ لم تكن الدعابة واردة فى ذلك الوقت .. ولم تكن الزوجة لتترك زوجها يحترق لمجرد أن تكون الدعابة محكمة .. هذه نقطة .. »

ثم مد يده إلى الوعاء الذى حفظ فيه الجنين وهو يقول :

- « لم تحتفظ (هالة) بوليدها فى المصحة التى نقلت إليها .. لقد أجهضت .. وقد احتفظ أحد الأطباء بالجنين إلى أن حصلت عليه أنا .. والسبب هو هذا .. »

وأدار الوعاء .. فرأيت بوضوح تام أن الفقرات العصعصية للجنين كانت متحورة على شكل ذيل كامل .. ذيل كامل مشقوق ..

هتفت فى رعب :

- « هل تعنى أن ؟ »

قال وهو يبتسم :

ـ ثمة رواية شهيرة اسمها (٣٦ ساعة) للأديب (كارل هيتلمان Carl Hittleman) تحكى عن ذلك الضابط الأمريكى الذى كان يعرف كل كلمات الشفرة وموعد هجوم الحلفاء على ألمانيا .. كان من المستحيل أن يتكلم مهما عذبوه وقد عرف الألمان هذا ، لذا خدروه واختطفوه وأجروا جراحة جعلته يتقدم فى العمر شكليًا .. نقلوه إلى مكان أعدوه سلفًا يبدو فى كل شىء كأنه قاعدة أمريكية .. الأطباء الذين يحيطون به يبدون أمريكيين ويتكلمون الأمريكية بطلاقة .. حين أفاق أفهموه أنه فى قاعدة أمريكية ، وأن الحرب انتهت منذ أعوام ، وأنه فقد وعيه وذاكرته ، لكنه الآن بخير .. عليه أن يأخذ راحته ..

ـ « ثم بدأ العلاج النفسى .. مطلوب منه ـ على سبيل تنشيط الذاكرة ـ أن يتذكر كل شفرات القوات الأمريكية فى الحرب .. متى كان الهجوم .. أين ؟ إلخ .. بالطبع تكلم الرجل .. لكنه فيما بعد اكتشف الحقيقة لأن جرحًا كان فى إصبعه منذ أيام ، ومن المستحيل أن تنتهى الحرب ولما يشف هذا الجرح بعد .. هكذا صار عليه أن يبرهن على أنه اكتشف الخدعة مبكرًا وأنه كان يخدع النازيين من البداية .. ويبدو أنه نجح فى ذلك .. »

كنت أعرف القصة جيدًا بل رأيت الفيلم عدة مرات ، فقلت له فى عصبية :

ـ « ما دور هذه القصة هنا ؟ »

ابتسم فى غموض وقال :

ـ « لعب أتباع (أبراكساس) نفس الدور تقريبًا .. لقد خدعت الزوجة مرتين .. فكر فى الأمر جيدًا ولسوف تجد أننى على حق .. إن الشبه بين القصتين شديد .. »

ثم تنهد واتجه إلى الواجهة الثالثة ووقف يتأملها بعض الوقت ، حيث كانت تلك المادة الهلامية المتحجرة .. كأنها شمعة عملاقة ذابت تمامًا ..

كنت الآن قد وصلت إلى حقيقة مفروغ منها : هذا الرجل ليس رجلاً .. سوف تشرق الشمس لأجد أنه لا وجود له .. لقد عشت هذا الموقف مرارًا .. لكنى على الأقل أعرف أن قصصه حقيقية .. ثم كيف أتأكد من نظريتى هذه ؟ لا سبيل إلا أن أنتظر ..

قال لى بصوته الغليظ :

ـ « القصة الثالثة تتحدث عن نوع ثالث من الرعب .. (ماذا يجرى فى ذلك البيت ؟) .. إنه شعور بدائى مخيف .. لكنه موضوع قصتنا التالية .. »

★ ★ ★

قال (مازن) :

فى العام ١٩٦٥ كان هناك مختبر قرب (كييف Kiev) فى الاتحاد السوفييتى ..

كان هذا المختبر يمارس بعض التجارب الغامضة التى لم تتضح طبيعتها .. كنا فى ذلك الوقت فى ذروة عصر الحرب الباردة .. والعلاقة بين القوتين العظميين علاقة من الشك المتبادل والمقت .. وكانت أمريكا لا تعرف بالضبط مدى ما بلغه السوفييت من تقدم علمى ، مما أدى إلى المبالغة فى أحيان كثيرة .. إلى حد أنهم سألوا أحد علماء الفضاء الأمريكيين عما يتوقع أن يجدوه لو وصلوا إلى القمر ، فقال بثقة : السوفييت طبعًا !

لهذا لنا أن نتوقع أن أحدًا على وجه البسيطة لم يعرف بكنه التجارب التى تدور فى ذلك المختبر ولا طبيعتها .. باستثناء أفراد محدودين جدًا فى الحزب وفى الجامعة .. ولما كان هذا المختبر قد تلاشى تمامًا الآن فإننى أعتقد - بلا فخر - أننى وأنت الوحيدان اللذان يعرفان يقينًا ما كان يحدث هناك ..

كان المشرف على المختبر أستاذًا سوفيتيًا يدعى (أندريه

أنسيمفتش خارين) - يمكننا أن نكتفى باسم (خارين) فهو يبدو محببًا للسمع - وكان طبيبًا بشريًا قبل أن يهتم بالظواهر الخارقة للطبيعة ، والسوفييت كما نعلم هم أول من اهتم بهذه الأشياء بشكل علمى وحاولوا أن يقننوها ..

وكان (خارين) كثير السفر واسع العلم ، وقد ارتحل مرارًا إلى إفريقيا وأمريكا الجنوبية .. رأى الكثير جدًا وشاهد ما هو أكثر .. وفى النهاية عاد إلى مختبره ليطبق ما وجده ..

لكن الحكومة وجدت بعد أعوام أن هذه التجارب لم تقدم شيئًا .. إنها تستهلك الكثير من الإنفاق الحكومى ولا تبدو لها نتيجة ملموسة ؛ لهذا قررت أن تغلق هذا المختبر وأن توقف التجارب ..

كانت الصدمة عنيفة على (خارين) ، لهذا اعتكف فى داره لفترة ، ثم طلب إذنًا لحضور أحد المؤتمرات فى (بلجيكا) .. وذهب هناك مع مساعده .. ثم ذاب تمامًا .. لم يعد أحد يعرف أين هو ولا ماذا فعل .. هؤلاء القوم حمقى ، فلو سألونى لقلت لهم إن هذا هو ما سيحدث بالضبط ..

لم تكن هذه حادثة غير مسبوقة على كل حال .. كثيرون حاولوا الفرار من وراء الستار الحديدى .. بعضهم نجح وحصل على حق اللجوء السياسى واستغله الأمريكان كبوق دعاية ضد الشيوعية ، وبعضهم فشل .. عندها لا نسمع عنهم ثانية .. ربما تعامل معهم الـ KGB بشكل ينهى أوهامهم .. هذا هو الأرجح على كل حال ..

حسن .. لا أحد يعرف شيئًا عن الدكتور (خارين) منذ العام ١٩٦٨ .. وبمرور الوقت لم يعد هناك مختبر قرب (كييف) .. ولكن القصة لم تنته ..

بالواقع كانت قد بدأت ..

* * *

كان (جان بيير) الصغير يقول : جارنا غريب الأطوار ..

كان (جان بيير) الصغير يقول : جارنا لا يتكلم كثيرًا ..

كان (جان بيير) الصغير يقول : جارنا لا يحب الأطفال ..

كان (جان بيير) الصغير يقول : جارنا يبدو ككائن من كوكب (يوريك) ينتظر لحظة الغزو ..

وكان الأب يقول : اخرس يا (جان بيير) ..

هذه طريقة تربوية أثبتت فعاليتها منذ الأزل .. وقلما تفشل ..

لكن الأطفال فى السابعة لا يستجيبون للطرق التربوية الناجحة .. لقد راح الصبى يأخذ حوض السمك الكروى الفارغ ويثبته على رأسه ، ثم يخرج فاردًا ذراعيه فى الصالة وهو يردد بلا توقف :

ـ « يا أهل الأرض .. استسلموا لجيش (يوريك) العظيم قبل أن نحرقكم بالأشعة الكونية .. »

ويطارد أخته الصغرى عبر الحجرات وهى تصرخ .. فلا ينقذها إلا أن تركض إلى غرفة المكتب حيث الأب يراجع أوراقه .. هنا يدخل الصغير فيثب الأب مذعورًا ويصرخ :

ـ « ستختنق يا أحمق !! »

وينزع الحوض عن رأسه ثم يأتى بفرشاة الشعر ، ويرقد (جان بيير) على ركبتيه كى يوسع مؤخرته ضربًا ..

هذه طريقة تربوية ناجحة أخرى .. والحقيقة أن الصغير لن يفكر بعد اليوم فى ارتداء الحوض على رأسه من دون أن تؤلمه مؤخرته ..

* * *

إنه (إبريل) حيث كل شىء جميل براق .. نظيف ..

فى الصباح كان الأب يذهب إلى العمل .. يقبل زوجته ويعبر الحديقة إلى حيث تنتظر سيارته الصغيرة الحمراء .. فكان أحيانًا يلقى جارهم وهو يأخذ بريده فيحييه بهزة رأس ..

بالفعل لا يعد السيد (روسكوف) ودودًا على الإطلاق .. إنه عجوز أصلع الرأس لكن ما بقى منه على جانبى رأسه يوشك أن يبدو كقطع قطن لصقها هنالك على عجل .. وله وجه قاتم مكفهر يجعلك تتوقع أن تبدأ يومك بنيزك يهوى فوق رأسك ..

يبدو أنه مهاجر من شرق أوروبا .. للغته الفرنسية طابع شرق أوروبى لا يمكن أن تخطئه .. وقد جاء إلى المنطقة منذ أشهر ، وهو لا يتكلم كثيرًا .. لا يتكلم على الإطلاق ، ولا يخرج تقريبًا .. واضح أنه يحصل على كل حاجياته من السوبر ماركت هاتفيًا .. وحتى هذه اللحظة لا يبدو أنه كان يمارس عملاً معروفًا ..

فى هذه المرة بدا أن الرجل راغب فى بعض الكلام .. لقد هز رأسه مرة أخرى ..

سأله الأب :

ـ « يوم جميل .. هه ؟ »

فهز الرجل رأسه من جديد بمعنى أن هذا يوم جميل ..

كانت هذه أطول محادثة ممكنة مع الرجل ، وبدا للأب أن هذا يوم خارق للعادة .. هكذا انتهى من هذه الثرثرة وأدار محرك سيارته مبتعدًا .. إنه (إبريل) حيث كل شىء جميل براق .. نظيف ..

وقف الضيف يرمق السيارة حتى ابتعدت تمامًا ثم عاد إلى داره ..

* * *

ـ « أؤكد لكما أنه غريب .. قادم من الفضاء .. »

ـ « لماذا ؟ الغرباء لا يبدون كذلك .. دائمًا هم يبدون مثلى ومثلك ، لكن حين يجرحون يسيل منهم دم أخضر .. أو يخرج شعاع نور ساطع من الجرح .. »

ـ « من الممكن أن يأتى غريب يبدو غريبًا .. »

كان هذا طبعًا هو (جان بيير) مع صديقيه (سيمون)

و(كلود) .. إنهم ثلاثة شياطين فقط لو فهمت كيف يمكن لطفل فى السابعة أن يكون شيطانًا .. وكل منهم لديه أخت صغيرة مزعجة لا تكف عن الشكوى ، وأم تصدق الأخت دومًا ، وأب يصدق الأم طبعًا لأنه لا يستطيع أن يفعل غير هذا ..

كانوا يتحدثون عن المسكين المسيو (روسكوف) طبعًا ..

وهكذا قضى الصبية الوقت يلعبون أمام باب الرجل محاولين أن يروه فى لمحة ما .. ولما لم يخرج كما هى العادة تمددوا على بطونهم عبر الطريق من الجهة الأخرى ، كما يفعل رجال العمليات الخاصة إذ يراقبون معسكرًا ..

كان البيت من طابقين ، صغيرًا جدًا ، وله حديقة غير منسقة .. لكن حرص الرجل على أن يغلق كل الستائر بدا لهم مرضيًا .. أحيانًا كان يفتح نافذة ما ، بحيث لا يبدو منها ثم يغلقها ثانية ..

ثم قرروا أن يبدءوا تقنية أخرى هى لعب الكرة .. لعبها بحيث تضرب باب الرجل من آن لآخر .. إن الصبية يجيدون هذه الأعمال المزعجة .. وفى مصر هناك مثل شعبى معناه (إن أردت أن تطرد أحدهم من القرية ، فأطلق عليه الأطفال) ..

بوم !!

هكذا ارتطمت الكرة بالباب .. فارتج ..

انفتح الباب وبرز الجار العجوز وقد ازداد وجهه كآبة .. ونظر عبر الطريق فرأى الصبية واقفين فى نوع من التحدى له .. كان قد اعتاد هذه الأمور كما هو واضح .. لابد أن كثيرين تحرشوا به من قبل .. والسبب هو الاستفزاز الذى يسببه الرجل المنغلق الغامض .. كأنه يهين الآخرين .. أو كأن فى انغلاقه درجة ما من التعالى .. لو كان ثرثارًا يقف فى وسط الطريق ولا يكف عن السباب لتركه الناس وشأنه ..

لكن الرجل كان عمليًا .. نظر إلى الأرض فوجد الكرة .. انحنى وحملها تحت إبطه كما تحمل أنت بطيخة وعاد إلى الداخل وأوصد الباب خلفه ..

ـ « كرتى !! »

كذا صاح (كلود) وهو يركل الأرض فى عصبية ..

ثم إنه استدار إلى (جان بيير) وصاح مغضبًا :

ـ « أنت صاحب الفكرة .. هذه الكرة غالية الثمن ومفضلة لدى .. »

قال (جان بيير) فى برود :

ـ « أنا لم آخذها .. هو فعل .. لو كنت تريدها بهذا القدر فلماذا لا تطلبها منه ؟ »

ـ « أنت صاحب الفكرة .. »

ـ « وأنت صاحب الكرة .. »

هكذا دار الجدل المحتدم العصبى .. وبدا أنه ما من واحد من هؤلاء الشجعان يرغب فى الدنو من الرجل أكثر من اللازم .. لماذا ؟ ألم نتفق على أنه غريب من كوكب (يوريك) جاء ليعد للغزو ؟

فى النهاية قال (جان بيير) وهو بالمناسبة أكبر الثلاثة سنًا .. صحيح أن الفارق بضعة أشهر ، لكن هذه الفوارق تغدو قرونًا فى عالم الأطفال :

ـ « سأدق بابه أنا وأستعيد الكرة .. »

★ ★ ★

ـ ٢ ـ

قال (مازن) :

بخطوات مرتبكة متعثرة عبر (جان بيير) الطريق متجهًا لباب الرجل .. نظر للوراء نحو صديقيه ، ثم رفع قبضته .. دق على الباب .. ثم إنه لاحظ وجود جرس هناك فضغط عليه ..

وفى هذه اللحظة بالذات خطر له أن يفر هاربًا ، ثم تماسك وقد أدرك أن صديقيه يرمقانه ..

انفتح الباب وظهر الوجه الكئيب العجوز ..

ـ « معذرة يا سيدى .. نحن لم نقصد أن نضرب بابك بالكرة .. »

ظل الرجل يرمقه فى ثبات كأنما هو صامت لا يتكلم .. فابتلع الفتى ريقه اللزج ، وقال :

ـ « هل تسمح لنا باسترداد الكرة ؟ »

لدهشة الصبيين أفسح الرجل الطريق ليدخل (جان بيير) من الباب ..

وكما حكى (جان بيير) فيما بعد اقتاده الرجل إلى الحديقة

الخلفية .. هناك كان صندوق من الخشب موضوعًا على العشب ، وكان يشبه صناديق الاقتراع ذات الفتحة فى أعلاها ..

دنا منه الرجل وأشار إليه باشمئزاز ولا مبالاة وقال :

ـ « كرتك بالداخل .. خذها ولاتعد هنا ابدًا .. »

كانت الفتحة صغيرة لاتسمح برؤية ما بداخل الصندوق .. ولم يتساءل الصبى لحظة عن كيف دخلت الكرة هنا ، فقد افترض أن للصندوق بابًا جانبيًا أو سفليًا .. لكن الفتحة كانت تسمح بدخول اليد .. هكذا أدخل يده دون تفكير وبلا حذر ..

بخ خ خ خ خ خ خ !

دوى الصوت الحاد البرى من داخل الصندوق ، وشعر بشىء يخمش يده فوثب إلى الوراء مذعورًا .. هنا انفجر العجوز ضاحكا ..

لم تكن ضحكة عادية ، إنما هى ضحكة من ضحكات السينما المفتعلة المبالغ فيها .. كان يرجع رأسه للوراء ويغمض عينيه ، وقد فتح فاه كاشفًا عن فم خال من الأسنان تقريبًا ما عدا سنين مصفرتين فى الفك السفلى ..

ها ها ها ها ها !

ولم يعرف الصبى متى ولا كيف فر من أمام الرجل عابرًا المنزل ركضًا ..

ها ها ها ها ها !

ها ها ها ها !

ها ها ها !

الضحك مستمر لكنه يخفت تدريجيًا وهو يخرج من الباب الأمامى باكيًا .. يعبر الطريق فى ثلاث وثبات ليكون مع صديقيه .. ولم يدر الصبيان لماذا ولأى سبب راح ثلاثتهم يجرون مذعورين ، بينما الضحكات المجنونة تلاحقهم ..

لابد أنهم كفوا عن الجرى عند حدود (تنزانيا) مثلاً ..

هناك وقفوا يلهثون ويلتقطون الأنفاس .. أخيرًا رفع (جان بيير) يده ليرى ما دهاها .. كان هناك خدش واضح دامٍ على ظهر يده وفى كفها .. وقد راح يمتص الدم وهو يبكى فى غل :

ـ « إنه شرير .. لقد أخافنى .. »

قال (سيمون) :

ـ « ألم تعرف ما كان فى الصندوق ؟ »

ـ « كيف لى ذلك ؟ غالبًا هو قط أو كلب صغير .. لكنه شرس .. »

ـ « سنخبر بابا .. »

ـ « لا .. هذا سيضعنا فى مشكلة .. لماذا تضايقون هذا العجوز الطيب ؟ طاخ طاخ ! »

للأسف كان هذا حقيقيًا .. لكنهم فقط كانوا يدركون شيئًا واحدًا : هذا العجوز قد خدعهم بشكل خسيس قاس .. ولابد من انتقام .. آه ه ه ! إن تصور ضحكة النصر على ثغره القبيح الآن لأمر يثير الجنون ! كان كل منهم الآن على استعداد لمصارعة أسد ـ لو اقتضى الأمر ـ فقط كى يزيل هذه الضحكة عن وجه الرجل ..

★ ★ ★

قال الأب وهو يلتهم الجبن فى نهاية الوجبة كما هى العادة الفرنسية :

ـ « لقد دعوته إلى العشاء معنا .. »

قالت الأم محتجة :

ـ « لا يبدو لى ضيفًا مريحًا .. »

ـ « لكنه مثير .. لا بد أن عنده قصصًا غريبة .. هؤلاء المهاجرون من شرق أوروبا يملكون حكايات مسلية للغاية ، وأنا أعترف لك هنا بأن الفضول يقتلنى لمعرفة من هو .. »

ـ « وهل قبل الدعوة بهذه البساطة ؟ »

ـ « لم أترك له فرصة الاعتراض .. قلتها وانصرفت قبل أن يرفض .. »

كان (جان بيير) يلتهم غداءه فى اشمئزاز كعادة الصبية فى سنه .. لكن ما قاله الأب جعله يلتهب حماسة ، وفى عينيه التمعت نظرة غادرة شيطانية ..

ـ « لن يكون فى داره هذه الليلة .. هذه فرصة نادرة .. »

قال (كلود) وهو ينظر له بتشكك :

ـ « كيف تضمن هذا ؟ »

ـ « لأنه سيكون فى دارنا .. يلتهم طعام أمى ! »

ـ « أوه ! يا للقرف ! »

ـ « المهم أن بيته سيكون خاليًا .. ولسوف نعرف كيف ندخله .. »

ـ « والغرض ؟ »

- « سنتلف كل شىء ! سنرى ما يهتم به ونتلفه .. لو كان رسامًا سنخلط الأصباغ على سجادته .. لو كان كاتبًا سنسكب الحبر على أوراقه .. لو كان فضائيًا سنتلف مكوكه المخصص للعودة ! »

- « لا تعتبرنى معكم .. »

نظر (جان بيير) إلى (سيمون) نظرة من يستثير نخوته :

- « وأنت ؟ المفترض أن تغضب لأن الرجل أهان صديقك .. »

بدا التردد على وجه (سيمون) ثم قال :

- « نعم .. أريد الانتقام لكن دخول بيته .. آسف .. هذه جريمة .. ثم من أدرانا ما يوجد هناك ؟ لربما كان يربى النمور .. »

- « ولو كان يربى النمور فلسوف نطلق سراحها ! »

ثم قال فى قلق :

- « إذن لا أحد معى ؟ »

قال (سيمون) الحل الوسط الذى وجده ما بين المخاطرة الزائدة والجبن الملوم :

- « سأراقب المخرج حتى لا يفاجئك أحد .. »

- « إذن موعدنا الثامنة مساء .. »

* * *

فى السابعة والنصف جاء الضيف ..

لم يقابله (جان بيير) لأنه أخبر أمه أنه لا يرغب فى تناول العشاء ، وكان على كل حال يعرف أن هذا سيسرها .. آخر شىء تريده لدى قدوم ضيف للبيت لأول مرة أن تجد طفلاً مزعجًا عليك أن تراقب تصرفاته .. هكذا سمحت له بعدم تناول الطعام .. بل الخروج إذا أراد ..

وكان السبب الآخر الذى راق له هو أنه لا يرغب بأى شكل فى أن يراه الرجل .. سيكون هذا محرجًا ..

وفى الثامنة مساء كان يقف قرب بيت الرجل على الجهة الأخرى من الطريق ، فى ذات الموضع الذى راقبوه منه أول مرة ..

بعد قليل جاء (سيمون) وهو يجر قدميه .. يسهل معرفة كيف تتم هذه المواقف .. إنها عبارة عن مجموعة أشخاص يخشى كل منهم أن يتهم بالجبن .. هكذا تتحرك عجلة التاريخ ..

- « أنا هنا ! »

قالها وهو يرقد على العشب ..

قال (جان ببير) وهو يخرج كشاف الجيب الصغير :

ـ « هناك باب خلفى .. على الأرجح سأتمكن من الدخول منه .. سأدخل وأفسد أشياء ثم أعود إليك .. لو رأيت أحدًا أطلق صيحة البومة .. »

ـ « أنا لم أسمع بومة فى حياتى ! »

ـ « إذن اصرخ بأعلى صوتك .. »

ونظر حوله فى الظلام فلم ير أحدًا .. إن غرفة الطعام فى داره مضاءة والمأدبة على قدم وساق .. ما زال هناك وقت .. وهكذا عبر الطريق جريًا ، ودار حول منزل الرجل ..

كانت الحديقة الخلفية مهملة تناثرت فيها بعض الصناديق الخالية .. مشى فى حزم وخفة وأدار المقبض ، لكن الباب لم ينفتح .. جرب مرتين دون جدوى .. هذا الوغد حذر .. وهو ـ (جان ببير) ـ لم يلق قط من يتذكر غلق باب المنزل الخلفى ..

هكذا راح يدور حول البيت بحثًا عن ثغرة ما ..

كانت هناك فتحة قرب الأرض .. واضح أنها مخصصة لدخول وخروج الكلاب .. هو لم ير أى كلب هنا على

الإطلاق .. إنها لا تكفى لدخول أى لص يحترم نفسه ، لكن ماذا عن الصبية ؟

هكذا دس جسده فى الفتحة وراح يحشر .. ويحشر .. أخيرًا وجد نفسه فى الداخل ..

كان قلبه الآن يخفق كطبل .. هذه أكبر جريمة ارتكبها منذ ولد ، وقد ارتكبها فعلاً ، ولم تعد هناك أعذار ..

الظلام دامس بالداخل .. يشعل الكشاف فيرى أقذر بيت يمكن تخيله .. كل شىء ليس فى مكانه .. كل شىء مهمل أو مبعثر .. لو كان خنزير يعيش هنا لكان تفسيرًا منطقيًا ..

هكذا راح يفتش البيت فى رفق .. فى حذر ..

وفى كل لحظة يزداد الانطباع فى ذهنه .. هذا الرجل مجنون .. لا يمكن أن يتحمل الحياة هنا إلا مجنون ..

هذه هى الثلاجة .. ترى ما الذى يأكله ؟

فتحها فدهش لأنه لم يجد بها أى طعام .. بل عشرات من الزجاجات .. حجم الزجاجة أقل من زجاجة المياه الغازية .. ربما هو النصف .. ربما كانت تحوى خمرًا لكنه نوع من الخمر كتب اسمه بحروف عجيبة .. هذا الرجل إذن لا يأكل بل يشرب ..

كان هناك قبو تقود له درجات سلم ..

وخطر له أن القبو فى القصص يخفى دومًا الشر الأكثر إرعابًا .. لو كان الرجل من كوكب (يوريك) فلسوف يحوى القبو أسلحة الدمار الكونى .. فليلق نظرة ..

* * *

نظر الرجل فى ساعته ومسح فمه بالمنشفة ، ثم قال بلهجته الثقيلة :

ـ « عشاء ممتاز يا سيدتى .. لكنى تأخرت ! »

تبادل الزوج وزوجته نظرة ذات معنى ، ثم هتف فى العجوز :

ـ « لم نتكلم بعد .. كنا سنجلس فى غرفة المعيشة وندخن بعض الوقت .. »

ـ « أنا لا أدخن .. »

ضحك الزوج طويلاً :

ـ « ولا أنا .. فقط أردت أن نجلس قليلاً و ... »

تجشأ الرجل فى فظاظة وهو ينهض وأفرغ بقايا الكأس فى فمه وقال :

ـ « مأدبة عظيمة يا سيدتى .. لكنى مضطر للانصراف .. أكره ألا أدخل فراشى قبل التاسعة .. »

قال الزوج مجاملاً :

ـ « أنت عسكرى سابق حين كنت فى (تشيكوسلوفاكيا) .. لا بد أن حياتك كانت تتحرك بدقة الساعة .. »

ـ « هذا صحيح .. »

قالها وهو يتجه إلى الباب ..

وهمست الزوجة من بين أسنانها :

ـ « إنه فظ فعلاً .. التهم طعامى الطيب ثم هو ينصرف .. من دون أن نتبادل عشر جمل مفيدة .. فى المرة القادمة يجب أن تحسن انتقاء من تدعوهم للعشاء .. »

وكان الرجل قد فتح الباب فعلاً :

* * *

- ٣ -

قال (مازن) :

كان الأمر أقرب إلى مختبر ..

الآن يفهم (جان بيير) سر الشيء الذى خمش يده .. هذه الأقفاص تحوى تلك القردة الصغيرة الصلعاء التى يعرفها لكنه لا يعرف اسمها .. وهى ترمقه بعيون متسعة خائفة تلتمع فى وهج الكشاف ..

(تبًّا ! هل القردة تنقل السعار ؟)

إذن هذا الرجل يربى القردة سرًّا .. لا بد أن سيارة جاءته منذ أيام فى الليل ونقلت له حمولتها .. إن القبو يجعل سرّها مكتومًا لا يعرفه أحد .. لن يسمع أحد صراخها ..

كانت هناك أنابيب اختبار .. أجهزة علمية لا يفهم ما هى ..

وكان هناك (مرطبان) كبير ألصقت عليه بطاقة مكتوبة بحروف لا يمكن قراءتها .. (المرطبان) يحوى مسحوقًا أبيض غامضًا أقرب إلى السكر .. وقد دون تحته تاريخ أمس بالذات ..

هناك لوح كتابة دونت عليه كتابة غريبة .. ثمة صور فوتوغرافية معلقة على الجدار .. صور بالأبيض والأسود مع لمسة البنى المميزة لصور الماضى .. هذا هو (روسكوف) إنه شاب لكنه أصلع الرأس كما هو ، يقف باحترام جوار رجل عسكرى كث الشارب .. ثمة صور له فى مختبر .. صورة له يقف مع رجال عسكريين ويشير إلى شىء ما على الأرض فى حقل ..

كانت فكرة الانتقام قد خطرت له الآن ..

اتجه إلى (المرطبان) وفتحه .. بحث حوله فوجد كيسًا صغيرًا من البلاستيك ، فتحه وأفرغ فيه ملء قبضة اليد من محتوى (المرطبان) .. ثم غادر القبو ..

لسبب ما بدأ يشعر بالذعر الآن .. لسبب ما قرر جهاز الهلع النائم فى عقله أن يعمل ..

لكنه لن يخرج من هنا قبل أن ينهى مهمته ..

اتجه إلى الثلاجة ففتحها .. أمسك بأول زجاجة فأزال غطاءها .. كانت لحسن حظه من الطراز غير (المبرشم) .. هكذا أفرغ بعض المسحوق الكريه فيها وأغلقها بإحكام .. مهما كان مضمون هذا المسحوق فالرجل سيتلقاه فى أحشائه ..

وكرر الشىء ذاته مع باقى الزجاجات التى كانت على السطح ..

(الباب ينفتح !)

وفى اللحظة ذاتها سمع صراخ (سيمون) .. صراخًا سخيفًا يحاول التظاهر بأنه بومة أو وحش ليلى ..

وثب قلبه فى فمه .. ركض إلى .. لا .. ليس القبو ..

(هل انتهت المادبة ؟ كيف عاد بهذه السرعة ؟)

ركض إلى حجرة الجلوس .. المشكلة أنه نسى أين كانت الفتحة التى دخل منها .. هل كانت فى الصالة ؟؟؟

فى النهاية قرر أن يتوارى خلف مقعد عملاق من الطراز الذى يسمونه Arm Chair .. وحبس أنفاسه وهو يسمع الرجل يتكلم .. كان يسب لكن بلغة غريبة .. لا يصعب أن تعرف السباب حين تسمعه .. أغلق الباب .. الضوء يغمر المكان ..

سمع الرجل يمشى فى الصالة .. صوت الثلاجة يفتح .. ثم .. الرجل يدخل الغرفة التى هو فيها .. يسترخى على المقعد الذى يتوارى وراءه .. رائحة أنفاسه كريهة لا تطاق .. إنها بالفعل تلوث المكان الذى يجلس فيه ..

كان يغنى فى إنهاك وبلا اتساق أو تناغم كما يفعل السكارى : كالينكا .. كالينكا !

صوت (لق لق لق) .. الرجل يجرع من زجاجة ما بنهم شديد .. أبهذه السرعة ؟ لقد فرغت .. يلقيها أرضًا لتقع جوار (جان بيير) .. ثم يبدو أنه يشرب زجاجة أخرى بذات النهم ..

فجأة دوت صرخة مريعة ..

لم يدر الصغير المذعور ما حدث .. فقط شعر بأن الرجل يسقط من على المقعد .. يصدر صوتًا مخيفًا كأنما شخص يذبح حيًا .. الحشرجة من حلقه وصوت الرغاوى المقزز ..

الرجل يصيح كمن لا يصدق بشىء ما .. إنه مذهول لكن لماذا ؟

هنا فقط كان الذعر قد بلغ نهاية الفتيل .. فخرج (جان بيير) من تحت المقعد ..

الرجل العجوز ممدد على الأرض وقد بدا فاقد الوعى .. كرشه فى الهواء يعلو ويهبط .. جواره زجاجتان فارغتان من ذلك المشروب الذى كان يملأ الثلاجة .. لا يمكن المرور من هنا إلا من فوق ذراعه .. ترى هل يشعر ؟

قرر أن يجازف .. رفع ساقه بحذر وعبر فوق الذراع ..

وفى اللحظة التالية هب الرجل من رقدته ..

شعر (جان بيير) بيد كالملزمة تطبق على كاحله فصرخ ، وسقط على الأرض ..

على حين جثم العجوز فوقه كالجاثوم .. بدا أكبر من الواقع .. أكبر من الحياة ذاتها ..

ـ « أنت أيها الفأر الصغير ! أنت من فعل هذا !! »

أطلق الصبى أنينًا وحاول التملص بلا جدوى ..

قال الرجل وهو يقرب وجهه من (جان بيير) :

ـ « ما دامت هذه لحظة الحقيقة فلتعلمن أننى البروفسور (أندريه أنسيمفتش خارين) من كبار علماء الاتحاد السوفييتى .. حاليًا أنا هارب من هناك .. متخف كى لا يجدنى رجال (كى جى بى) .. أنت نزلت إلى القبو أيها الفأر .. لا تنكر ذلك ! لقد رأيت صورتى مع (ستالين) الحديدى ومع المارشال (زوكوف) .. لقد كنت رجلاً شديد الأهمية وفى لحظة قرروا أن أبحاثى هراء .. والسبب أننى لم أكن أعرف ما أعرفه .. حتى العام ١٩٦٨ لم أكن أعرف ما أعرفه .. » :

فتح الصبى فمه وأطلق صرخة كفيلة بشفاء الصم .. لكن الرجل كوم منديلاً قذرًا ودسه فى فمه بحنكة وبراعة لا تصدقان .. هنا فقط أدرك (جان بيير) أن مصيره أسود .. بالتأكيد يختلف عن شد أذنيه .. لماذا لا يريد الرجل أن يسمع صرخاته أحد ؟ لماذا لم يجره من أذنه إلى داره كى يطلب أن يعاقبه أبواه ؟

قال الرجل بلهجته الغريبة ذات الطابع الروسى :

ـ « أنت دسست لى المسحوق فى زجاجة (الفودكا) .. لقد شعرت بالشىء .. لا تكذب .. وأنت لا تعرف بالضبط ما دسسته لى ولا خطره .. كان هذا خطأ لأنك ستشرب زجاجة كاملة منه معى !! »

أنّ الصبى فى وهن .. وانتفض جسده لكن لا مجال لمقارنة الوزنين ..

أردف (خارين) وهو يحك ذقنه :

ـ « كان هذا نيزكًا سقط فى أمريكا الجنوبية .. وقد حصلنا عليه قبل أى واحد آخر عن طريق أجهزة استخباراتنا .. يقولون إن فرصة أول لقاء مع كائنات حية من الفضاء الخارجى لن تكون مع أشخاص خضر اللون لهم هوائيات

على الرءوس .. إن فرصة اللقاء ـ حسب القوانين الإحصائية ـ ستكون مع بكتريا أو فيروس أو كائن وحيد الخلية .. هذا هو نوع اللقاءات الممكنة .. وقد حدث هذا بالفعل .. إن ما يحتويه النيزك كان نوعًا معقدًا من الحياة أقرب إلى فطر .. نعم فطر كامل .. لم تقض عليه رحلته .. وقد حاولت كثيرًا أن أعيد له الحياة بلا جدوى .. وحينما فررت من الاتحاد السوفييتى كنت أحمله معى .. »

ثم صمت وراح يلعق شفته بلسانه كأنما يستوثق من تغيرات جديدة هناك .. وأردف :

ـ « عدت أمارس تجاربى بدقة .. وفى النهاية عرفت مكمن الخطأ .. لقد عادت الحياة إلى هذا الفطر بعد أعوام من السكون .. وقد جربته على القردة والقطط .. هذا الفطر هو أعتى سلاح بيولوجى عرفه الإنسان على الإطلاق .. إنه يحيل قردًا كامل النمو إلى كتلة هلامية من العجين خلال دقائق .. يكفى أن يأكله أو يحقن فى دمه ولسوف ترى القرد يذوب أمامك .. تصور هذا ! »

ثم اتسعت عيناه ونظر فى وجه الصبى :

ـ « وأنت دسسته لى فى شرابى ؟! لقد شربت زجاجتين منه .. لقد عرفت هذا على الفور .. هل تعرف لماذا ؟ »

وفى اللحظة التالية كانت كفه فى وجه الصبى .. لكن لم تكن هناك أصابع .. لقد تحولت اليد الآن إلى عجين هلامى أقرب إلى شمعة ذائبة ..

قال الرجل وهو يمد يده إلى زجاجة على الأرض :

ـ « لقد انتهى أمرى .. لكنى لن أموت قبل أن أراك تشرب زجاجة كاملة منه ! »

وانتزع المنديل من فم (جان بيير) فراح هذا يصرخ ويركل .. الزجاجة تقترب من فمه .. الـ ...

فجأة بدأ وجه الرجل يذوب بالفعل كأنه تمثال من الشمع وضعت تحته شمعة .. ثمة نوع من العفن الأخضر كعفن الخبز ينتشر فوق ملامحه بسرعة . أحيانًا يزحف على السطح وأحيانًا يتوارى .. لكنك تراه طيلة الوقت .. لو أنك أحرقت منديلاً ورقيًا مكومًا لرأيت شعلات النار تفعل الشىء ذاته .

إنه يتهاوى .. بصعوبة سحب الصبى نفسه من تحت الشىء البشع الجاثم فوقه ..

ـ « ستشـ .. بو .. بلو .. بلو !! »

صدر هذا الصوت من كتلة الهلام الذائبة التى ما زالت تحتفظ بحقد غريب ..

إنه يتحرر .. يركض نحو الباب .. ينظر للوراء فيرى الكتلة تتهاوى والسائل الهلامى يخرج من كل فتحات ثيابها الباب .. أدار المقبض فانفتح .. الحديقة والليل .. حمدًا لله !

راح يركض عابرًا الطريق وهو يولول .. لا يصدق أنه نجا ..

وهناك كان (سيمون) ينتظره ممتقع الوجه .. وفتح فمه ليتكلم لكن الصبى أخرسه صائحًا :

ـ « اجر معى !! إنه قادم ! »

وظل الصبيان يجريان .. ويجريان .. ويجريان ..

* * *

عاد إلى البيت فلم يقل لأبويه شيئًا ..

كان أول ما يريد هو أن يغسل وجهه ويبدل ثيابه كى لا تكون هناك أسئلة مريبة ..

وقف أمام المرآة وبدأ يغسل أذنيه فوجهه .. تمضمض بالماء عدة مرات .. إن ملامح وجهه تكشف عن كارثة .. لا بد من أن يبقى فى غرفته لفترة ما ..

كل عضلة فى جسده ترتجف .. لقد ذاب الرجل فى دقائق .. ذاب فى دقائق .. وكان سير غمنى على شرب ذلك الـ .. كان سير غمنى على شرب .. كان سير غمنى على شرب .. كان سير غمنى على شرب .. ذاب فى دقائق .. لقد ذاب الرجل فى دقائق ..

ثم تصلب ..

لقد لاحظ للمرة الأولى منذ يوم ذلك الخدش فى يده اليمنى .. الخدش الذى أصابه من القرد فى الصندوق ..

(يكفى أن يأكله أو يحقن فى دمه ، ولسوف ترى القرد يذوب أمامك .. تصور هذا !)

هو أمسك بالمادة التى تشبه السكر بقبضته .. هو قد ..

وهنا لاحظ للمرة الأولى شيئًا لم يلحظه من قبل .. منذ متى كان إصبعه الأوسط ملتحمًا بالسبابة بهذا الشكل ؟

وكلما أطال النظر أدرك أنهما يذوبان ليلتحما معًا .. على حين راح خنصره يلتوى كأنما هو شمعة تذوب ..

هرع إلى باب الحمام وجثا على ركبتيه صارخًا بصوت مبحوح :

ـ « ماما !! ماما !! »

* * *

الواجهة الرابعة

عينا راسبوتين

- ١ -

قال (مازن) :

ـ « بالطبع تحول الصبى (جان بيير) إلى كتلة هلامية هى التى تراها أمامك .. وقد حصلت على الكتلة وحصلت على المسحوق إياه .. قبل أن ينتهى الصبى تمامًا حكى القصة لأبويه كاملة ، وقد جرى تحقيق عن الموضوع ولم تعرف الصحف شيئًا عنه .. وظل المسحوق فى المختبرات الفرنسية لكنى حصلت على بعضه .. »

قلت له وأنا أعيد تأمل الكتلة خلف الواجهة :

ـ « إذن هذا طفل أو ما بقى منه ! »

ـ « هو كذلك .. ويجب القول إنه تلقى أقسى عقاب ممكن على شيطنته .. هذه طريقة تربوية ناجحة أخرى.. »

ـ « وهل جربت المادة ؟ »

قال باسمًا وهو يتجه إلى الواجهة الرابعة :

ـ « ماذا تظن ؟ إن الفضول هو القوة المسيطرة على الوجدان الجمعى .. أقوى من أى شىء آخر .. والآن لنر هذه الواجهة .. »

نظرت إلى ساعتى .. لقد توغل الليل كثيرًا .. لقد صارت العودة إلى القاهرة اليوم وهمًا .. والغريب أننا كنا واقفين طيلة هذا الوقت فلم تتعبنى ساقاى .. لكننى قدرت أن أمامى ساعتين على الأقل قبل أن أعرف ما يجب معرفته ، ومعنى هذا أن علىّ أن أمضى ما بقى من الليل فى الإسكندرية ..

طلبت منه أن نستريح قليلاً فوافق ، وعدنا إلى غرفة مكتبه ..

غاب بعض الوقت ثم عاد حاملاً صحفة عليها بعض الشاى والشطائر .. وقد سرنى هذا .. جلس يراقبنى وأنا ألتهم الطعام وهو يتأمل سيجاره أكثر مما يدخنه ..

ـ « هناك غرفة نوم يمكن أن تقضى فيها ما تبقى من الليل .. »

ابتلعت ما بفمى ، وقلت ضاحكًا :

ـ « لا أعتقد أن الأمور بهذا السوء .. إن النهار قد اقترب .. »

صمت وراح يراقبنى فى نفاد صبر ، ولسان حاله يقول : ألن تنتهى أبدًا من هذا الأكل ؟ ما زال أمامنا الكثير ..

بالفعل فرغت من الطعام وشربت الشاى ، فنهض متعجلاً إلى المتحف دون أن يقول كلمة أخرى ، وهكذا نهضت وراءه وأنا لم أفرغ من المضغ بعد ..

ووقفنا أمام الواجهة الرابعة ..

كانت الواجهة تحوى إناءً آخر من أوعية الفورمالين الشفافة .. وبالداخل كان هناك قضيبان من الزجاج ثبتت على كل عود عين بشرية كاملة .. كأنه عود من المكرونة فى نهايته بيضة مسلوقة ؛ لو لم تكن ممن يكرهون هذه التشبيهات .. على العموم كل أطباء علم الأمراض يحبونها ويطلقون عليها (باثولوجى مطعم الوجبات الجاهزة Deilcatessen Pathology) ..

قال الرجل :

ـ « النوع الرابع من الرعب يتعلق بالتغيرات التى تطرأ ولا يمكن تفسيرها ، على أكثر مخلوق تعرفه فى الوجود ــ أو هكذا تحسب ـ أنت ! »

* * *

قال (مازن) :

لم يحب (عادل السلامونى) زيارته لـ (موسكو) قط ..

كان يشعر طيلة الوقت بأن هناك جوًا خانقًا يحيط به طيلة الوقت ، وبأنه مراقب وبأن هناك نوعًا من التوتر فى كل شىء .. كانت هذه فترة السيطرة المطلقة للحزب ، مما يعطى الجو كله طابعًا (أورويليًا) لا يمكنك أن تتحمله ..

كان (عادل) طبيبًا فى العقد الثالث من عمره ، لم يتزوج بعد .. وقد جاء إلى الاتحاد السوفييتى فى بعثة تعليمية بهدف الحصول على درجة الدكتوراه فى أمراض العيون .. كانت أكثر البعثات الدراسية تتجه إلى الاتحاد السوفييتى فى ذلك الوقت ..

قلت إن (عادل) لم يحب (موسكو) قط .. والسبب على الأرجح كل قصص الجاسوسية وأفلام (جيمس بوند) التى قرأها فى صباه ، والتى جعلته يشعر بأن (موسكو) مخبر كبير يراقب كل سكناته ، وكان يؤمن بأن لدى الناس ما يقولونه لكنهم خائفون ..

هكذا راح فى لهفة يترقب الفرصة التى تنتهى فيها بعثته ويعود إلى مصر ..

(أولجا) ؟ من أخبرك بموضوع (أولجا) ؟ إنها فتاة رائعة حقًا من ناحية الجمال وتمثل كل أحلامه عن المرأة ، حتى إنه يتخيل صورتها فى أى قاموس تحت كلمة (امرأة) .. وهى تحبه بجنون ويعتقد أنه يحبها بجنون .. لكن هناك تلك المشكلة التى لا حل لها .. إنها لا تؤمن بشىء .. تكتب فى خانة الديانة فى أية استمارة تملؤها كلمة (لا يوجد) ..

وكان (عادل) متدينًا وقد أدرك أنه لا يستطيع الزواج منها لأنه ـ ببساطة ـ لا يريد لها أن تربى أطفاله ..

لهذا ـ يمكننا أن نفهم ـ لم تحمل له (موسكو) أية ذكرى سارة على الإطلاق سوى ذكرى الحب المستحيل .. وهى ذكرى تناسب الشعراء والأدباء ، ويمكنها أن تجلب لهم رزقًا واسعًا بكل القصائد التى سيكتبونها عنها .. لكنها لا تناسبه هو الإنسان العملى الذى لم يقرأ قصيدة ولا رواية فى حياته ..

كان يعد الأيام والأشهر بانتظار انتهاء البعثة ، إلى أن صار شهر يفصله عن الوطن ..

* * *

قال (مازن) :

كان الأستاذ السوفييتى (يورى زاجالوف) رجلاً غاية فى البداية .. ثقيلاً جدًا من الطراز الذى لو جلس لجلس للأبد ، ولو وقف لوقف للأبد .. هناك نظرة منهكة فى عينيه من الطراز الذى يقول : (أنت لن تبهرنى بشىء فلا داعى لأن تتعبنى معك) .. كان هو المشرف على دراسة (عادل) ..

قال له وهو يعبث فى نموذج صغير للكرة الأرضية على مكتبه :

ـ « يؤسفنا أنك سترحل قريبًا يا د. (عادل) .. كنت طالبًا مجدًا وأعتقد بشكل ما أنك لم تحب (موسكو) . لكنى ما زلت أتمنى ألا تنسى أصدقاءك هنا .. »

لم يرد (عادل) حتى لا يتورط فى مجاملة هى أقرب إلى كذبة .. لكنه كان متأكدًا من شىء واحد : لربما كره (موسكو) لكنه أحب الكثيرين من الموسكوبيين بلا شك ..

قال البروفسور وهو ينهض :

ـ « إننى راغب بحق فى أن أهديك شيئًا .. كلما رأيته تذكرت أستاذك (زاجالوف) .. لو جئت معى إلى مكتبى .. »

كانا يتكلمان فى غرفة الجلوس فى منزل البروفيسور .. الثلج ينهمر بالخارج ، والمدفأة مريحة تجعل فكرة الانصراف من هنا كابوسًا .. لابد أنك ستتلقى نزلة برد تزيلك من على وجه الأرض ..

كان يشرب الشيكولاته الساخنة ، وهو يستشعر لذة المشروب الساخن الدسم يتسرب إلى أحشائه .. لهذا حمل الطبق فى يده ومشى وراء البروفسور ..

كان مكتب البروفسور مريحًا دافئًا هو الآخر ، ومنسقًا بعناية .. هناك جدار تحتله بالكامل كتب طبية أكثرها كتب بالروسية .. الجدار الآخر تحتله مكتبة أدبية عملاقة تحمل أسماء مثل (تشيكوف Chekhov) و(جوجول Gogol) وغيرهم من الكتاب الكبار الذين لم يعد أحد يرحب بهم فى الاتحاد السوفييتى (لأنهم رجعيون) ..

ثمة جدار ثالث تحتله واجهة زجاجية ملأى بالتذكارات .. تشبه الواجهة التى نقف أمامها ..

أشعل البروفسور سيجارًا روسيًا غليظًا كريه الرائحة وقال مفكرًا :

ـ « هل درع التميز الطبى ؟ لا .. إننى بحاجة إليه ..

ثمة قلادة من سيبيريا أحتفظ بها . لكن .. ماذا عن هـذه الرصاصات ؟ إنها ألمانية من أيام حصار (ستالينجراد) .. وهذه ؟ قطعة من شظية .. هل تحب الدمى ؟ هناك دمية من (أوكرانيا) .. لكن .. نعم .. هى الدمية .. إنها جميلة .. »

ومد يده الممسكة بالسيجار والتقط دمية خزفية تمثل فلاحة روسية تربط شعرها بإيشارب ..

فوجئ (عادل) بذلك الإناء الزجاجى .. الإناء الذى نـراه أمامنا الآن .. وكان متواريًا بين التذكارات فلا تكاد ترى ما فيه .. فقال فى دهشة :

ـ « ما هذا يا بروفسور ؟ »

نظر البروفسور إلى الإناء وهز رأسه فى تقزز :

ـ « هذا .. كلام فارغ .. قل إنه تذكار لحماقتى .. »

عاد (عادل) يلح على الرجل :

ـ « ما الذى يدعوك للاحتفاظ بعينين كاملتين فى خزانة ذكرياتك ؟ »

قال البروفسور :

ـ « فى شبابى كنت أحمق .. مثلك .. كل الشباب حمقى فى الواقع .. وكان هناك ذلك العراف الذى قالوا إنه يعرف

الكثير من الأسرار .. وقد باعنى أشياء كثيرة ، غريبة لكن أغربها كان هاتين العينين .. »

ثم ابتسم فى سخرية ونفث سحابة كثيفة من الدخان :

ـ « ما رأيك فى امتلاك عينى (راسبوتين) ذاته ؟ »

* * *

-٢-

قال (مازن) :

بالطبع ارتجف (عادل) لهذه الكلمات الغريبة .. وعاد يستوثق من المعلومة ..

قال البروفسور وهو يتأمل الدمية الخزفية :

- « زعم العراف أن جثة (راسبوتين Rasputin) لم تدفن بعينيها .. لكن هناك من انتزعهما ، ووضعهما فى سائل حافظ ثم حشا المحجرين بالصلصال .. ومن يومها يتوارث العرافون هذه التحفة العتيقة .. قال لى إن لهاتين العينين قوة مغناطيسية لا يمكن وصفها ، وإنه من الخير لى ألا أطيل النظر فيهما .. قال كذلك إننى لو زرعتهما لأى شخص لاكتسب قوة (راسبوتين) .. دعنى أقل لك إنه لو كانت هاتان عينى (راسبوتين) لوجدت منظمة (اليونسكو) كلها تقف خارج باب هذه الغرفة ، ولربما أرسلونى إلى (سيبيريا) بتهمة اختلاس أملاك الدولة .. طبعًا انبهرت بهذا الشىء وقتها وابتعت هذه العينة المقززة ، وحرصت على ألا أنظر إليها أبدًا .. ومن حينها هى عندى فى هذه الخزانة لا أجد الشجاعة كى أتخلص منها .. »

قال (عادل) باسمًا :

- « هذا العراف كان يفترض أنهم يزرعون العين كاملة فى محجر العين .. »

- « طبعًا .. هذا ما يعتقده العامة . لا يعرفون أننا نأخذ القرنية فقط بالـ (كيراتوم Keratome) .. وحتى على هذا الصعيد لا يمكن أن تزرع قرنية تعود لعام ١٩١٦ .. الخلاصة أن مالى ضاع هباءً »

وقف (عادل) يرمق الإناء فى نهم .. الحقيقة أن العينين فتنتاه ولا يعرف لهذا سببًا ..

- « بروفسور .. هل تهدينى هاتين العينين ؟ »

مضغ البروفسور سيجاره ونظر لـ (عادل) كأنما يرى مجنونًا .. نفث سحابة كثيفة وقال :

- « هل جننت ؟ هل هذه هدية ؟ »

- « قلت إنك راغب فى الخلاص منها .. »

- « نعم .. لكنى لا أحب إهداءها لأصدقائى .. »

- « إن هذه ما أتمناه فعلاً .. »

نظر له البروفسور طويلاً ، ثم مد يده فى الخزانة وأخرج الإناء الزجاجى ..

* * *

كلما ذكرت كلمة (كاريزما) تداعت إلى الذهن صورة الروسى (جريجورى يفيموفتش راسبوتين)(*) .. الرجل الذى كان راهبًا جوالاً ثم مرق واتجه إلى حياة الرذيلة .. إن صوره ما زالت حية بعينيه القويتين الثاقبتين ولحيته السوداء الكثيفة وثيابه السوداء التى تجعله ينضم بجدارة إلى عالم المسوخ .. الفارق هنا أنه كان شخصًا من لحم ودم يمشى على الأرض ..

كان يقدم نفسه للناس على أنه معالج روحانى ..

كانت له سطوة نفسية لا يمكن وصفها ، وكانت عيناه قادرتين على جعل أقوى الرجال يرتجف خوفًا .. أما النساء فكن يسقطن صرعى هواه بلا تحفظ ، ويقال إنه نموذج للرجل الذى تعلن النساء أنهن يكرهنه ويشمأززن منه فقط لأنهن يعرفن كم هن ضعيفات أمامه ..

يجب أن نضيف هنا أنه كان فى غاية الفجور ، وكان يتحدث دومًا عن أن الأرض السوداء تنتج أشهى الثمار .. لهذا كان يبحث عن الرذائل بالمجهر ليرتكبها ..

(*) سنتحدث عنه بالتفصيل فى كتيب (فانتازيا) رقم ٣٨ إن شاء الله ..

بشكل ما وصل صيته إلى البلاط القيصرى ، حيث كان ابن القيصر يعانى مرضًا نزفيًا متكررًا هو (الهيموفيليا Hemophilia) .. وكان هناك من نصح القيصرة بأن تجرب قدرات هذا الرجل العجيب ..

هكذا بدأ الطفل يتحسن ، وسرعان ما تنامى نفوذ (راسبوتين) فى البلاط إلى حد أنه كان بالفعل يحكم روسيا كلها من خلال القيصر وزوجته .. فقد كانت الزوجة تثق به ثقة عمياء وتعتقد أنه أطهر رجل عرفته ..

وفى العام ١٩١٦ قررت مجموعة من نبلاء البلاط أن يتخلصوا من هذه الكارثة .. هكذا دسوا له السم فى شرابه .. فقط ليعرفوا أن السم لا يؤثر فيه .. وقد كاد يفتك بهم بجسده العملاق المخيف ، هكذا أطلقوا عليه الرصاص ..

ويقال إن (راسبوتين) كان هو المسمار الأخير فى قبر آل (رومانوف Romanov) الذين لاقوا نهاية مفجعة فى ثورة ١٩١٧ التى جاءت بالشيوعيين إلى الحكم وأطاحت بالنظام القيصرى ..

أين دفن (راسبوتين) ؟ لست متأكدًا من هذه النقطة .. لكن السؤال الأهم هو : هل دفن وعيناه فى محجريهما ؟

* * *

هكذا عاد (عادل) إلى مصر وهو يحمل فى متاعه إناء زجاجيًا حرص على تبطينه وتغليفه بعناية كى لا يتهشم ، ولحسن حظه لم يفتح أحد حقائبه لأنه كان سيجد عسرًا فى تفسير حمله لعينين آدميتين معه ..

التذكار الوحيد الذى يحمله من (موسكو) هو هاتان العينان وبعض الصور مع (أولجا) وخطابات منها ..

لم يكن (عادل) متزوجًا كما قلنا ، ولم يكن له بيت فى المدينة .. كان حتى هذه اللحظة يقيم فى بيت أسرته بقريته وهى قرية تتبع محافظة (...) لديهم هناك بيت من الطوب من طابقين .. فهى أسرة على قدر من اليسر .. لكنه كان يخطط للحياة فى المدينة فقط ما إن يستقر ويجد زوجة المستقبل .. وقد حرص على أن يعد غرفته هناك بعناية ، ووارى الإناء فى خزانته التى احتفظ بمفتاحها منعًا للحوادث المؤسفة ..

فلما جاء الليل وانتهى مسلسل استقبال الأقارب والأصدقاء ، صعد إلى غرفته وارتدى جلبابًا للنوم ..

لا يعرف السبب .. لكن لهفة غير عادية كانت تغمره ، مع رغبة عارمة فى أن يتأمل هاتين العينين ..

فتح الخزانة وأخرج الإناء ووضعه على منضدة صغيرة هناك .. ثم جذب مقعدًا خشبيًا عتيقًا وجلس عليه ينظر إلى هاتين الكرتين ترمقانه من خلال الزجاج عبر السائل الشفاف ..

من الخطأ أن يتكلم المرء عن عينين قويتين .. إن ما يعطى الانطباع بالنظرة هو أشياء أخرى .. شكل الأهداف .. شكل الحاجبين .. اتساع فتحة العين .. كل هذه أشياء لابد منها لتعرف إن كانت النظرة قوية أم لا .. أما أن تضع كرتين فى حوض زجاجى فهما ذات الكرتين لدى أى شخص آخر .. كأنك تتأمل إطار سيارة منزوعًا ثم تحاول الكلام عن فخامة السيارة ذاتها وانسيابيتها ..

لكن هاتين العينين كانت تملكان قوة جذب لا يعرف سببها ..

ولوقت لا بأس به ظل يتأملهما فى ضوء الغرفة الشاحب الخافت الذى يبعثه مصباح وحيد يتدلى من السقف ..

كانت تنقلانه إلى عوالم غريبة لم يرها من قبل .. إنه يرى (الكرملين) والثلج يتساقط من حوله .. هناك عربة تجرها الخيول .. أميرة روسية تغمض عينيها فى افتتان ..

حفلات راقصة صاخبة .. الضباط بثيابهم الأنيقة المزركشة يرفعون سيوفهم فى رشاقة .. وجوه تضحك .. وجوه تبكى .. خيول .. ذئاب بيضاء ..

كل هذا وهو ينظر إلى العينين الثابتتين ..

فجأة نظر إلى ساعته ففطن لحقيقة مروعة .. إنه هنا ينظر لهاتين العينين طيلة ساعتين كاملتين ! هكذا أعادهما إلى الخزانة .. وأطفأ النور ..

كانت هذه أول ليلة له فى مصر منذ أعوام ، وقد نام نومًا عميقًا بلا أحلام ..

★ ★ ★

قال الأستاذ المصرى وهو يقلب صفحات الرسالة السميكة :

- « ليس بوسعنا الانتهاء من هذه سريعًا .. أعتقد أنك ستتأخر خمسة أشهر على الأقل .. »

قال (عادل) فى ضيق وهو ينهض من مقعده :

- « سيدى .. أنا فى وضع معلق بين مصر و(الاتحاد السوفيتى) .. أريد الانتهاء سريعًا كى أعرف موضع قدمى .. هم قد فرغوا منى هناك ولم تبدءوا معى هنا .. لا يمكننى العودة لهم .. ولا يمكننى معاودة حياتى هنا .. »

قال أستاذه وهو ينزع عويناته :

- « أفهم كل هذا لكنى لا أعرف كيف أفيدك .. هل أجيز بحثًا لم أقرأه ؟ »

- « إذن لماذا لا تفعل ؟ »

لاحظ دون قصد أنه يتكلم فى حدة .. الأستاذ نفسه لاحظ هذا فرفع عينه متسائلاً ..

فجأة اتسعت عيناه .. نبتت قطرات عرق على جبينه ، فأخرج منديله بيد مرتجفة . وقال :

- « نعم .. نعم .. أعدك أن أنتهى من ذلك فى أسرع وقت .. »

بنفس اللهجة الحازمة التى لم يتعمدها قال (عادل) :

- « أسبوعًا واحدًا على الأكثر ؟ »

قال الأستاذ وهو يجفف العرق على جبينه :

- « نعم .. نعم .. اسبوعًا على الأكثر .. »

- « شكرًا يا سيدى .. »

قالها بذات الطريقة الحازمة الآمرة .. ودون أن تفارق عيناه عينى الرجل ، ثم غادر المكتب ..

حينما اختلى بنفسه لم يصدق أنه فعلها .. قال لنفسه : لا بد أننى أملك تأثيرًا نفسيًا هائلاً لا أستخدمه .. كل هذا الحزم وكل هذا الإصرار .. والغريب أنه لم يتعمد ذلك قط ..

من الغريب أن تكتشف فى سن الثلاثين أنك قوى الشخصية .. يحسب المرء أنه عرف كل شىء عن نفسه متى بلغ العشرين .. لكن النفس البشرية تشبه البصلة .. كلما أزلت المزيد من الأغشية عنها بدت لك طبقات أخرى لامعة نظيفة لم ترها من قبل ..

لا بد أن تجربة الغربة قد أفادته وصقلته .. هو يكره أن يخاطب أستاذه بهذه الطريقة ، لكنه إلى حد ما كان يرغب فى ذلك .. إن حياته متوقفة على رأى هذا الأستاذ ..

★ ★ ★

ـ « السينما هذه الليلة ؟ مستحيل !! »

قالتها (تغريد) وهى تتراجع إلى الوراء فى غضب ..

كانت (تغريد) هى مشروع زواجه قبل أن يسافر إلى الاتحاد السوفييتى ، وهى فتاة لا بأس بها لكنها لا تقارن بـ (أولجا) من ناحية الجمال طبعًا .. لا يزعم أبدًا أنه

أحبها لأنه كما قلنا رجل عملى جدًا .. كان يريد زوجة وكانت هى تصلح ، وقد راق له أنها لم تكن قد ارتبطت بأحد لدى عودته من البعثة ..

قال لها بلهجة حازمة :

ـ « لا أرى ما يضير فى دخول السينما معى .. لست مراهقًا سخيفًا .. »

ـ « هذا هو بيت القصيد .. لست مراهقًا سخيفًا ولا أنا مراهقة سخيفة .. لهذا لا أرى داعيًا على الإطلاق لهذه الدعوة .. أنت وعدت بأن تطلب يدى هذا الأسبوع .. فلنفترض أن أبى رفض ؟ لماذا أختلى برجل لن يكون لى ؟ »

ـ « لن يرفض .. »

ـ « وقد يفعل .. لهذا أرى أن الانتظار قد .. »

نظر لها بحدة وقال وهو يضغط على كلماته :

« (تغريد) .. ستذهبين معى إلى السينما لأننى أريد ذلك .. موعدنا فى السادسة مساء .. يجب أن أنتهى مبكرًا كى أعود إلى قريتى .. »

كانت تنظر له وقد اتسعت عيناها .. متى رأى هذه النظرة من قبل ؟ .. شفتاها منفرجتان ترتجف السفلى منهما .. ثم قالت بصوت مبحوح :

ـ « ليكن .. أمرك .. أمرك . »

سر من نفسه .. لم يكن يريد شيئًا من هذه الدعوة إلا أن تقبلها .. فقط يريد أن تحقق إرادته انتصارًا ما .. وقد حققه .. حياته كلها تتحول إلى انتصارات متلاحقة ...

وقال لنفسه وهو ينتظر أمام باب السينما :

ـ « إن شخصيتى تزداد قوة .. إننى أتمتع بكاريزما لاشك فيها !! »

* * *

ـ ٣ ـ

قال (مازن) :

فى الفترة التالية توالت انتصارات (عادل) فى معركة الإرادة .. الأب رحب به بلا تردد ووافق على أن يتزوج ابنته .. صاحب البيت الذى كان متمسكا بمبلغ معين ، وجد نفسه يتنازل عن نصفه بسهولة مطلقة .. وهكذا وجد (عادل) نفسه وقد خطب (تغريد) وامتلك شقة لا بأس بها فىالمدينة ، وأجيزت رسالة الدكتوراه الخاصة به ..

وقد أخبر أهله فى القرية أنه سينتقل إلى المدينة .. إنه بحاجة إلى البحث عن عيادة ..

لم يرفض أحد .. بالواقع لم يعد أحد يرفض أى طلب له من زمن ..

وهكذا نجد الآن أن (عادل) يقيم فى شقة وحده فى المدينة ، وقد كون عادات جديدة .. لكن العادة الوحيدة التى لم يتخل عنها هى الجلوس أمام العين ومراقبتها لمدة ساعات .. لقد أدمن تلك العوالم الغامضة التى تنقله إليها ..

قالت له (تغريد) ذات مرة وهو فى دارها :

ـ « لا أعرف السبب لكن هل ثمة مرض ما فى عينيك ؟ »

مط شفته السفلى فى تهكم ، لكنها واصلت الكلام :

ـ « أنا لا أمزح .. لقد تغيرتا كثيرًا وإننى لأخافهما أحيانًا .. »

تجاهل ما تقول .. لكنه إذ دخل الحمام وقف بعض الوقت أمام المرآة .. وهو لم يكن من الأشخاص المولعين بوجوههم على الإطلاق .. كان يعرف أنه لا بد من وجه حتى لا يمشى بعظام الجمجمة عارية .. لكنه فى هذه المرة أطال النظر .. وبرغمه شعر برجفة تتخلل عموده الفقرى .

كأنما قد أحاط عينيه بكحل كثيف قبل أن ينزل من داره .. الحاجبان صارا كثين جدًا يتدليان فوق عينيه .. فتحة العين ذاتها صارت واسعة جدًا .. الخلاصة أن هناك بحيرة كاملة من اللون الأسود تحيطان بعينين لايمكن مقاومتهما .. عينين من الطراز الذى لا تستطيع معه تذكر إن كان هناك وجه أم لا ..

شعر بقلق فحاول أن يبعد المنظر عن ذهنه ..

إنه طبيب عيون .. ولو كان هناك مرض اسمه (نظرات العين الثاقبة أكثر من اللازم) لكان هو أول من يسمع به .. قال لنفسه إن عينيه نافذة على روحه . وروحه قلقة عجول لا تريد أن يضيع من العمر يوم واحد آخر .. لهذا لم يعد يقبل من يجادله أو يخالفه الرأى .. يريد طاعة عمياء ..

هذا هو كل شىء ..

* * *

على أن القلق عاوده حين كان فى ذلك المتجر تلك الليلة ، وكانت هناك أم تحمل طفلاً رضيعًا على كتفها وتمسك بيد طفلة فى الثامنة .. وقف وراءها فرأى الرضيع يرمقه بعينين متسعتين فى رعب ثم انفجر فى صراخ هستيرى مجنون .. عواء إذا أردت الدقة ..

نظر لأسفل فرأى الطفلة تنظر له بذات الرعب .. ثم تنكمش فى ثوب أمها دون أن تفارقه بعينيها ..

نظر لأعلى من جديد فوجد الأم تنظر للوراء .. تغمغم فى جزع :

ـ « بسم الله الرحمن الرحيم .. »

ثم تجر طفليها بعيدًا عنه بسرعة الفار من المجذوم ..

ما معنى هذا ؟ والأسوأ هو أن البائع ظل يرتجف وأوقع أشياء على الأرض .. وبدا كأنما لا يريد شيئًا فى العالم قدر أن يرحل هذا القادم ..

فى اليوم التالى كان فى المستشفى .. حين صرخت الممرضات أن المريضة الفلانية تعانى ألمًا عنيفًا ..

دخل العنبر ليجد مجموعة من الأطباء الشبان يحيطون

بفراش مريضة .. هناك الكثير من الصراخ والهستريا .. هناك من يحقنها بأشياء .. نظر لهم متسائلاً رافعًا حاجبيه على شكل علامتى استفهام ، فقال له طبيب شاب يعرق بغزارة :

- « إننا نعدها للجراحة غدًا .. لكنها تصرخ من ألم مبهم فى عينيها .. تشعر بأنهما ستنفجران .. »

راجع التذكرة الخاصة بالمريضة ، ثم غمغم :

- «جراحة حول بسيطة ستجرى لها غدًا .. هذه المريضة لا تعانى ألمًا حقيقيًا .. هذه هستيريا لا أكثر .. »

- «قل لها ذلك يا سيدى .. لقد حاولنا كل شىء .. »

كانوا قد جربوا كل الأساليب المعروفة فعلاً بدءًا بالكلام الهادئ المطمئن ، مرورًا بحقن محلول الملح الزائفة ، وانتهاء بالصفعات .. لكنها كانت تصرخ كقطار السكك الحديدية ، وبدا أنها لن تكف حتى تموت ..

- «ربما لو طلبنا من يخدرها يا سيدى .. »

- «ليس إلى هذا الحد .. »

ودنا من المرأة .. الحقيقة أنها كانت قد كفت عن الصراخ

فعلاً فى اللحظة التى رأت فيها عينيه .. نظر لها فى ثبات ووضع أنامله على جبهتها وإبهامه على جفنها العلوى .. بدأت تصمت .. تراخت معالم وجهها ، ثم أغمضت عينيها ونامت .. لماذا فعل هذا ؟ من أخبره أنه قادر على هذا ؟ لا يعرف ..

وقال أحد الأطباء الواقفين :

- « هذا سحر يا سيدى .. »

الحقيقة أنه كان يعرف ذلك .. يعرف أن الكلمة تعنى معناها حرفيًا ..

ابتسم فى تهكم يدارى الكثير من التوجس وانصرف ..

هكذا بدأ القلق يعصف به .. وكان أول ما ابتاعه فى طريق العودة إلى الدار نظارة سوداء .. هكذا يخفى هاتين العينين القويتين فلا يكشفهما إلا عند الضرورة ، وكما يفعل الفارس الذى لا يخرج سيفه من غمده إلا عند الحاجة .. الآن يفهم كلام شعراء العرب عن (جردت نظرتها) أو (أعادت عينيها إلى غمدها) ..

من الغريب أنه - وهو الذكى - لم يربط حتى هذه الحظة بين العينين وما يحدث ..

وهكذا راح يمضى أيامه فى تأمل العينين وفى مراقبة ما يحدث لعينيه هو فى دهشة بالغة ..

إن الأمر يزداد وضوحًا .. الكل يفسح له الطريق حين يمشى فى الشارع .. فى الحافلة يتحاشى الناس الاحتكاك به ويطرقون بأبصارهم .. فى العمل لم يعد أحد يواجهه على الإطلاق ..

كان قد أطال شعر رأسه قليلاً فى الفترة السابقة ، وهو ناعم منسدل بطبعه .. مما جعله يبدو بالفعل مثل صور (راسبوتين) التى نراها ذات خشونةً فى بدايات القرن العشرين ..

لكنه لم يع هذا التحول إلا فى وقت متأخر للغاية ..

وفى مساء يوم جلس كعادته إلى المنضدة يراقب العينين خلف السائل الشفاف .. هذا اللون الأزرق الغريب .. هذا الصفاء الذى يخترق كل شىء ..

بعد ساعة من المراقبة غمغم هو يغمض عينيه ..

ـ « الآن أعرف أن الأسطورة حقيقية .. هاتان العينان هما عينا (راسبوتين) .. لا أرى الموضوع على أى ضوء آخر !! »

* * *

ثم ماذا ؟

إن هذا الاكتشاف لم يفقده حياته .. لم يكلفه مالاً .. فقط جعله أكثر نجاحًا وتأثيرًا .. فقط جعل الناس يعاملونه على أن أحلامه أوامر .. على قدر علمه لم تسبب التجربة أى ضرر ..

إنها الثامنة مساء ..

عليه أن يبدل ثيابه لأن لديه موعدًا مع خطيبته .. يجب أن اقول هنا إن الفتيات صرن ينظرن له بمزيج من الخوف والانبهار فى كل مكان .. إنها تلك النظرة الثاقبة التى تخبرهن أنهن بلا دفاع .. وخطيبته (تغريد) لم تكن استثناء ..

هكذا وقف أمام المرآة يصلح من ربطة عنقه .. إنه وسيم .. على الأقل هو يعتقد هذا .. لو تناسى متاعبه الأخرى فهو شاب ناجح فى الثلاثين من عمره وما زال العمر أمامه و ....

إنها التاسعة والنصف !

نظر فى هلع إلى الساعة المعلقه على الجدار خلفه ..

هذا صحيح ! ساعة ونصف مرت وهو أمام المرآة يصلح ربطة عنقه ..

الأخطـر أنه مشعث مغبر .. وأن هنـاك بقعة دم علـى كتف القميص !!

متى حدث هذا ؟ كيف ؟

من الواضح أن (تغريد) انتظرته طويلاً .. ثم رحلت .. ولكن هذه ليست المشكلة الآن ..

ماذا حدث وما الذى فعله فى ساعة ونصف ظل يرمـق فيها نفسه فى المرآة ؟ من أين جاء الدم ؟

فى كل لحظة كـان يدرك الحقيقـة المخيفـة أكثـر .. لقد صارت عيناه ضده .. إنهما تتلاعبان به !

ما حدث هو أنه نوم نفسه مغناطيسياً وهو أمام المرآة !!

* * *

من هذه اللحظة صارت عينـاه غريبتين عليـه .. إنهمـا عدوان خطران ..

صار يقضى أغلب اليوم حتى فى الظلام واضعًـا النظـارة السوداء علـى عينيـه .. مـا الـذى فعلـه فـى تلـك السـاعة والنصف ؟ ومن أين جاء الدم ؟

هذا ما لم يعرفه قط ولم يحاول معرفته .. لقد غاب عن العالم ساعة ونصف ساعة صار فيها مشعثًا مغبرًا ببقعة دم على قميصه .. إن النتائج واضحة لكن التفاصيل لا تهم ..

لقد صـار غريبًـا مخيفًـا .. النـاس يهابونـه وهـو يهـاب نفسه .. والسبب ....

هاتـان العينـان اللعينتـان .. اللتـان حملتـا كـل شـرور صاحبهما ..

إنه يملك قوة هائلة لكن ما نفعها لو استدارت هذه القوة نحوه هو نفسه ؟ إنها نوع من الأسلحة الفاسدة فى حرب ١٩٤٨ التى كانت تنفجر فى صدور أصحابها بدلاً من صدور الصهاينة ..

جلس إلى مكتبـه وأمسك بالقلم وكتـب فـى حسم جملـة واحدة :

ـ « هاتان العينان .. يجب أن تزولا للأبد .. »

اتجه إلى الخزانة حيث احتفظ بالوعاء الزجاجى ..

فى حسم حمله إلى الحمام ..

أزال الغطاء الذى أغلقوا به الوعاء يومًا ما منذ خمسين

عامًا .. ومن الوعاء تصاعدت أبخرة زيت الغنطرة الكريهة الحارقة .. نظر إلى المرحاض وأخذ نفسًا عميقًا ..

سيقوم الآن بعمل كان يجب أن يقوم به منذ أشهر .. إنه سهل لكنه كان عسيرًا أمس فقط ..

نظر إلى المرآة المعلقة فوق الحوض فرأى وجهه الصارم ينظر له فى حدة .. هل هذا وجهه فعلاً ؟ بشىء من الخيال يمكنه أن يقول إن هذا وجه (راسبوتين) ذاته ..

إنه ....

لقد اقتنصته العينان !

إنه يرى (الكرملين) والثلج يتساقط من حوله .. هناك عربة تجرها الخيول .. أميرة روسية تغمض عينيها فى افتتان .. حفلات راقصة صاخبة .. الضباط بثيابهم الأنيقة المزركشة يرفعون سيوفهم فى رشاقة .. وجوه تضحك .. وجوه تبكى .. خيول .. ذئاب بيضاء .. فلاحون يرقصون (الكازاتشوك) .. رجل مدثر بالفراء يمشى بصعوبة وسط العواصف .. طفل ينزف من أنفه .. طلقات رصاص .. خيول (القوزاق) تنقض من أعلى التلال ..

لا داعى لتدمر عينى (راسبوتين) .. إنهما أثر ثمين .. إنهما الشاهدتان على تاريخ بأكمله .. هناك عينان مؤذيتان يمكن تدميرهما ولن تسببا خسارة لأحد ...

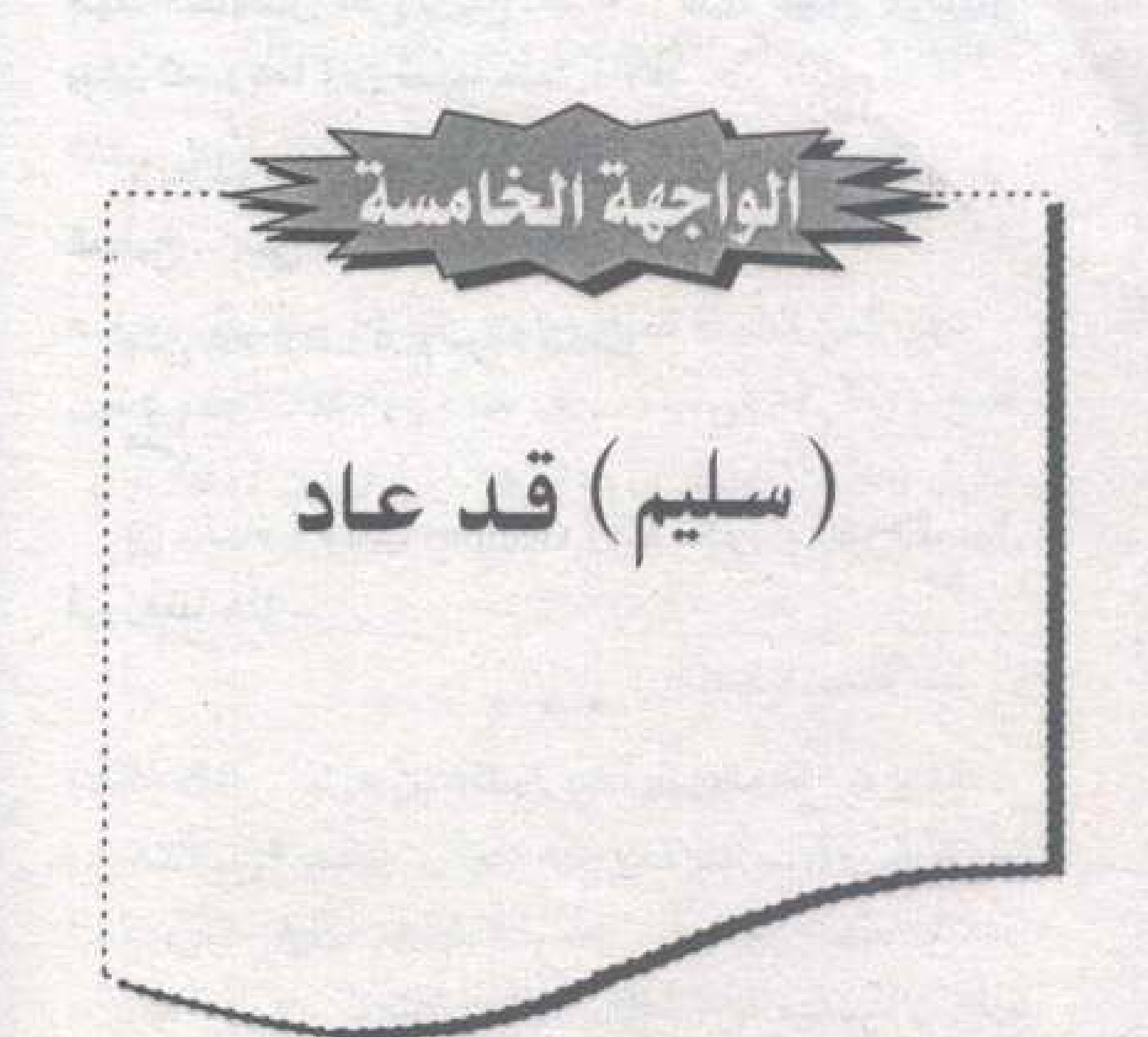
لا يعرف متى ترك الإناء سليمًا بما فيه .. متى ذهب إلى المطبخ .. متى انتقى سكينًا حادًا مدببًا .

متى عاد ليقف أمام مرآة الحمام ..

متى ..

إن مأساة (أوديب Oedipus) قد تتكرر بذات التفصيل فى زمننا هذا ..

* * *



ـ ١ ـ

قال (مازن) :

ـ « هكذا فقد (عادل) عينيه .. وقد عرفت منه القصة فيما بعد ، واحتفظت بهاتين العينين كأثر ثمين لا يجب أن نبدده ، برغم أنه توسل إلى ألا أفعل .. أعتقد أن اللعنة قد تركته الآن لكنها دمرته إلى الأبد .. والآن أسألك عن رأيك فى هذه القصة ؟ »

فكرت قليلاً .. إن هذه القصة بالذات تحمل الكثير من الجو المقبض الكريه ..

قلت فى كياسة :

ـ لست متأكدًا .. لكن هل حاولت أن تطيل النظر فى هاتين العينين أنت نفسك ؟ »

ابتسم ابتسامته الغامضة أياها وقال :

ـ « كثيرًا جدًا ! ربما عدة ساعات .. »

ـ « نظراتك لم تزدد حدة أو إقناعًا .. »

ـ « لم تزدد حدة لكن كل شىء فى أعماقى تغير .. إن كل

جزء من هذا المتحف الأسود قد ترك علامة دائمة فى ذاتى .. وأعتقد أن نفسيتى تشبه هذه الواجهات ذاتها .. »

وقبل أن أعلق قال :

ـ « القصة التالية سأريك الواجهة الخاصة بها فيما بعد .. فقط أقول الآن إنها تحكى عن رعب (إن ما فعلته لن يمر .. لابد من انتقام مخيف) .. »

* * *

قال (مازن) :

فى الواحدة بعد منتصف الليل على الطريق الزراعى قرب (بنها) .. هناك تلك الشاحنات المندفعة بأقصى سرعة ، وسائقها الذى لم ينم منذ وقت طويل .. إن (التباع) يغفو جواره منذ زمن ، وصوت المذياع الذى يبعث بصوت (فايزة أحمد) لا يساعده على الاستيقاظ ..

فى الواحدة بعد منتصف الليل والمطر قد بدأ يهطل .. والطريق زلق كظهر ضفدع .. والسائق يشعل لفافة تبغ أخرى متظاهرًا بأن الدخان يساعده على البقاء متيقظًا لكنه يعرف أن هذه أكذوبة ..

هنا تأتى اللحظة الدرامية المتوقعة .. هناك من يعبر الطريق ..

يا للكارثة ! يضغط على آله التنبيه .. يحرك الضوء متراقصًا .. لو ضغط الفرملة الآن لانقلب فورًا .. كلا .. لا يستطيع .. فقط يأمل أن يتوقف هذا العابرأو يتراجع للوراء ..

أو يسرع ..

لكن العابر يواصل طريقه فى تؤدة كأنما لديه كل الوقت ..

ورأى السائق شيئًا يختفى تحت مقدمة الشاحنة .. ثم لا شىء ..

إنه يستطيع التوقف بعد خمسمائة متر ،لكن ما جدواه ؟ هو يعرف أن هذا العابر العابث قد انتهى أمره .. وهو لم يكن ممن يملكون الشجاعة الأدبية الكافية .. على الأقل هو لم يرتكب خطأ .. القتيل هو من فعل ..

وهكذا واصل طريقه وكل عضلة فى جسده ترتجف ..

* * *

هناك من وجد الضحية وحملها إلى المستشفى ..

كان الدكتور (ممدوح) طبيب الامتياز الشاب يحاول أن

يبقى ساهرًا باحتساء كوب شاى أعدته الممرضة .. لكنه كان يتوقف للحظات وكوب الشاى فى الهواء .. يغيب عن العالم .. ثم يفيق فيشرب جرعة أخرى .. إن البرد مع تأثير الدفء داخل المستشفى لمما يجعل النعاس قوة لا تقهر ..

فقط سمع صوت سيارة الإسعاف الكئيب وهى تقف .. كان يحفظ هذه الأصوات جيدًا .. صوت الباب المنزلق فى ظهرها يفتح .. صوت فرد المحفة .. صوت العجلات وهى تجرى على الأرض .. كان لهذا تأثير أقوى بمراحل من أى منبه يأخذه بالفم أو بالحقن ..

هب على قدميه وضم المعطف .. وركض إلى الخارج ليرى المصيبة القادمة ..

بالفعل كانت مصيبة .. هناك رجل أشيب فى الخمسين من عمره ، يرقد على المحفة وهو متدثر بخرق لا تدرى كنهها بالضبط لكنها ملوثة بالطين والدم ومبتلة .. وبدا من شحوبه أنه لم يعد بوسع (ابن سينا) نفسه أن يساعده لو كان ساهرًا فى الاستقبال العام فى هذه اللحظة ..

بقدمين ترتجفان جرى الطبيب الشاب محدود الخبرة ، وطلب من الممرضة التى كانت شبه نائمة بدورها أن تلف جهاز الضغط حول ذراع المصاب .. ودس طرفى المسماع فى أذنه .. لاشىء يحدث .. لايوجد صوت على الإطلاق .. جرب مرتين فلم يسمع شيئًا ..

ألصق المسماع بصدر الضحية فلم يسمع شيئًا .. راح يفرك صدره .. لاشىء ..

لاداعى لإيقاظ الطبيب المقيم إذن .. إن يومًا عصيبًا ينتظره غدًا ، ولسوف تنهمر عليه الصواعق لو أيقظه من أجل رجل ميت فعلاً ..

هكذا مط شفتيه علامة العجز ، ونظر إلى المسعف نظرة تقول كل شىء ..

ومن دون كلمات جاءت الممرضة بملاءة وغطت بها وجه المتوفى ، على حين اتجه المسعف إلى الهاتف ليطلب جهة ما .. كان الدكتور (ممدوح) يشعر الآن أنه حارس مرمى لم يختبر ، لكن ـ على الأقل ـ لم تهتز شباكه .. لم يتسبب فى موت المريض .. هذا يعوضه بعض الشىء عن وفاته ..

وبيد مرتجفة كتب الديباجة التى حفظها عن ظهر قلب :
يبلغ السويتش وينقل المتوفى الى المشرحة بعد ساعتين ..

بعد قليل جاء ذلك المريض المعتاد .. المريض الذى أصابه مغص كلوى فى الثالثة صباحًا .. إنه قادم مع خمسة من أهله وهو لا يكف عن العواء .. بعض العواء مفتعل

لاشك فى ذلك ، يبرر به المريض إزعاج كل هولاء فى ساعة كهذه وتحت هذه الأمطار ..

هكذا انهمك د. (ممدوح) فى عمل يعرفه ويجيده وينجح فيه .. ووقفت معه الممرضتان الموجودتان تعينانه .. الكثير من الصخب والصراخ والضوضاء .. لابد أن الأمر استغرق نصف ساعة ..

ثم عاد الهدوء الى المكان ..

وعاد د. (ممدوح) يشرب آخر جرعة من الشاى الذى تحول الى ماء بارد سكرى أسود ..

هنا سمع الممرضة تشهق ..

ـ « د. (ممدوح) .. »

ـ « همممم .. »

ـ « د. (ممدوح) .. »

صاح بلهجة متذمرة وقد نفد صبره :

ـ « ماذا عندك ؟ »

ـ « المتوفى الذى كان على المحفة .. لقد اختفى ! »

نهض(ممدوح) مذهولاً لا يفهم ما يحدث .. ركض إلى الردهة الجانبية حيث كانت المحفة .. حقًا لا يوجد أحد .. لكن أين وكيف ولماذا ؟

لا يوجد إلا احتمال واحد هو أنه لم يسمع جيدًا .. لقد كان الرجل حيًا لكنه فقد الوعى .. لابد أن الارتباك جعله عاجزًا عن قياس ضغط الدم وسماع القلب .. هذا هو التفسير الوحيد ..

وشعر بالدم يحتشد فى وجهه .. ماذا يقول للشرطة حين تصل بعد قليل ؟ ماذا يقول للطبيب المقيم حين يصحو ؟

ليته يستطيع أن يكذب عليهم .. ليته يستطيع أن يقول إن القتيل قد نهض وانصرف لحال سبيله ..

لكنه لم يدر أن هذه هى الحقيقة .. بالضبط هى الحقيقة ..

* * *

-٢-

قال (مازن) :

فى الثانية صباحًا وبعد رحيل آخر المواسين دخلت (محاسن) الغرفة الأخرى فى الدار .. فلم يكن ممكنًا أن تنام فى ذات غرفة الزوجية بعد كل ما حدث ..

كانت مرهقة ، لكنها قدرت أن الأرق نديمها هذه الليلة ..

شريط الأحداث يتوالى أمام عينيها فلاتملك أن تبعده .. (سليم) زوجها ، صحيح أنه لم يكن أفضل زوج فى العالم .. صحيح أنه لم يكن بذلك اللطف .. لم يكن بذلك الكرم لم يكن بهذه الأريحية .. لكنه زوجها ، والمرء لو اعتاد أن ينام جوار ثعبان (بوا) لمدة عشرين عامًا فلابد أن يفتقد هذا الثعبان إذا مات ..

تزوجا منذ عشرين عامًا .. وأقاما فى هذه القرية .. كان يحب حياة القرية .. ويرفض الحياة فى (بنها) أو الابتعاد عن أقاربه .. وقد ابتنى هذا البيت منذ خمسة وعشرين عامًا ، وبالتدريج صارت حياتهما مزيجًا خاصًا فريدًا من حياة القرية وحياة المدينة .. لم تحب هذه الحياة أصلاً لكنها

قبلتها كما يقبل المرء كل شىء آخر فى حياته .. وكانت تدرك أن فرصها فى الاعتراض محدودة لأنها لم تنجب ، وهناك ألف شخص ينصحون رجلها بالزواج كى يحافظ على اسم الأسرة (وكأنها أسرة محمد على) .. لكنه قاوم .. حتى هذا الشهر بالذات ..

الحقيقة التى لا يعرفها القراء هى أنها قتلته ..

هى لاتعتقد أن هذا يجعلها زوجة غير صالحة .. فهى تشعر بأنها تفتقده برغم كل شىء ..

لقد جاء أخوها عصرًا ولم يكن فى الدار غيرهما .. دارها بعيدة عن باقى القرية منعزلة من الطراز الذى (يقتل فيه القتيل فلايعرف أحد) .. وكان هذا هو المطلوب بالضبط .. جلس الرجلان يشربان الشاى على سطح البناية .. بعد قليل بإشارة سريعة من عينيها قامت وأخوها بقتله .. إن صفحات الحوادث تعج بالقصص الرهيبة المماثلة ، فلاداعى لوصف التفاصيل .. فقط نقول إنها وأخاها قتلاه لأنه كان ينوى أن يتزوج امرأة أخرى .. إنها لم تنجب ، وكان الميراث الذى سيضيع من العوامل المهمة التى جعلتها لاتفكر مرتين .. لم تكن من النسوة البلهاوات اللاتى يقتلن بسبب الغيرة ، ولكن لأسباب مادية ملموسة يمكن تحويلها إلى أرقام ..

كانت فترة غروب الشمس حافلة بالأحداث ، حيث تعاونت مع أخيها فى حمل الجثة قرب الدار .. تحت شجرة التين العجوز .. لم تفضل إلقاءها فى (الرياح) لأن هذه الطريقة تفتضح دائمًا .. إنها ليست بلهاء ..

لكنها على الأقل احترمت الجثة فتركت أخاها ليستكمل الدفن ، وعادت إلى دارها ..

الآن قد أزالت آثار كل ما حدث داخل البيت .

عندها فقط راحت تجوب القرية بحثًا عن زوجها .. طرقت كل دار وأطلقت الكثير من الصراخ الهستيرى .. ليس من دأبه أن يتأخر إلى هذه الساعة ، لا بد أن مكروهًا أصابه ..

وتدخل خوفها من افتضاح أمرها ، ليجعل من أدائها عملاً أكاديميًا يمكن تدريسه فى معاهد المسرح العالمية .. لقد كانت خائفة فعلاً ، وقد نجحت فى استخدام هذا الخوف فى أدائها ، كما يفعل أى محترف تدرب فى (ستوديو الممثل) فى (هوليوود) ..

وبالتالى بدأت ليلة عصيبة كريهة .. كانت عليها واجبات اجتماعية هائلة من العويل ولطم الخدين إلخ .. كل هذا باعتبار ما سيكون .. لكن أحدًا لم يعرف كم هى صادقة ..

وعندما توغل الليل انصرف الجميع مع كلمة عن (النهار الذى له عينان) و(غدًا يأتى الفرج) ..

الخلاصة أنها الآن مرهقة تمامًا ..

ترغب فى النوم .. تشتهيه .. وقد ساعدها هذا على نسيان خوفها .. أضف لهذا أنها كانت امرأة شديدة المراس أقوى أعصابًا من أى رجل عرفته .. المرأة التى تخاف من النوم فى بيت قتلت فيه زوجها هى امرأة مدللة مائعة .. هذا رأيها ..

ترقد فى الفراش تتأمل الجدار المطلى بالجير ، والذى أحالته إلى شاشة ذكريات ..

لكنها تسمع من يدخل الغرفة .. تسمع صوت خطوات ..

توقف تنفسها .. إنها وحيدة تمامًا فى هذه البناية .. ما معنى هذا ؟

رفعت رأسها وفى الظلام استطاعت أن ترى ذلك الشخص الذى يدخل غرفة النوم .. من هذا القادم ؟ فتحت فمها لتصرخ لكن الصرخة احتبست فى حلقها ..

إنه هو .. هو بالذات ..

كان يلبس ذات الثياب وإن صارت حالتها رثة .. ممزقة متسخة بمزيج من الدم والأوحال مبتلة تمامًا .. وكان يتصرف بطريقة عادية تمامًا كأن شيئًا لم يكن ..

ـ « مساء الخير يا (محاسن) .. »

قالها بصوته الذى تعرفه جيدًا ، ثم أردف وهو ينزع الثياب عن نصفه العلوى :

ـ « هاتى لى جلبابًا .. إن هذه الثياب مبتلة تمامًا .. »

هنا فقط خرجت الصرخة من فمها .. عميقة حادة رفيعة تصم الآذان ..

★ ★ ★

كان اليوم التالى أسود يوم فى حياتها كما يحق لنا أن نتوقع ..

لقد كان عليها أن تصمت وأن تمارس حياتها بشكل طبيعى .. الجيران والجارات يأتون ليهنئوها على عودة الرجل ، ويسألن ترى أين كان .. بينما هو يجلس فى وسط الدار صامتًا كئيبًا لا يفتح فمه ولا يقول شيئًا .. نظرة ذاهلة كمن نوم مغناطيسيًا ..

لقد فقدت وعيها لدى رؤيته فى المساء .. حسبته شبحًا وهو التفسير المريح ، أو هو لم يمت وجاء للانتقام .. لكن الغريب فى الأمر أنه لم يقل شيئًا ولم يفعل شيئًا .. ارتدى

جلبابًا ما ورقد فى الفراش ليواصل النوم كأن ما مر به كان يومًا معتادًا ..

ظلت هى خارج الغرفة ترتجف .. ولقد فكرت أكثر من مرة فى أن تحضر الفأس لتكمل ما بدأته .. أو تتخلص من حياتها .. أو تهيم على وجهها صارخة فى أزقة القرية ..

لكنها عدلت عن هذه الحلول جميعًا .. كلها غير عملية ، وسوف تلفت إليها الأنظار .. ولسوف يعرف الناس ما كان .. هكذا ظلت ما بقى من الليل وحدها خارج الدار .. ترمق صوت الكلاب البعيد وتصغى للظلام وتشم البرد .. نعم .. لا يوجد خطأ هنا .. لقد اختلطت حواسها بالفعل ..

كانت موقنة من أنها وأخاها قتلاه فأحسنا القتلة .. لا توجد أخطاء .. ضربتان محكمتان على رأسه ، ثم الخنق .. هل كان يجب إزالة رأسه تمامًا ؟ دفناه بعناية .. فكيف ومتى استعاد وعيه وغادر القبر ؟

هكذا كان العذاب الأول هو أن تبقى وهذا الشىء فى دارها .. والعذاب الثانى ـ والأشنع ـ أنها لن تظهر أبدًا أية علامة هلع أو ذعر .. ليس أمام الناس .. ليس أحب إليها من أن تصرخ قائلة : لكنه ميت ! أنا متأكدة من هذا !؟ أنا قتلته !!

لكن هذه الأشياء لاتقال طبعًا .. هى لاتملك هذا الترف ..

هى الآن فى الدار .. الجيران يأتون ليطمئنوا .. لاتجرؤ على النظر إليه .. لاتجرؤ على النظر إليهم ..

أحد الرجال يقول :

- « إنه لا يتكلم .. لماذا لاتطلبون له الطبيب ؟ »

ويقترح آخر أن الحل الأمثل هو عصير القصب .. كان له عم أصيب بشىء كهذا فابتاع له عصير قصب .. ولكن من أين عصير القصب فى قرية كهذه لاتوجد فيها معصرة ؟ هكذا يتطوع أحدهم ويحمل (شفشق) من البلاستيك ويتجه إلى (بنها) لإحضار بعضه ، وقد رسم على وجهه علامات الخطورة كأنه ذاهب للبحث عن (يورانيوم ٢٣٥) من أجل مفاعل نووى .. »

لكم ودت لو تتخلص منهم ! وفى الآن ذاته لم تتمن لحظة أن يرحلوا لتواجه هذا الشىء وحدها ..

هى لاتعرف شيئًا اسمه (الزومبى) طبعًا ، فلو كانت تعرفه لكان أدق وصف هو (ثمة زومبى فى دارى) ..

وكان أول ما خطر لها هو أن تهرع إلى المكان الذى دفناه فيه ..

يجب أن تتأكد من آثار الحفر .. هل هناك من أخرجه أم هو من أخرج نفسه ..

هكذا تأكدت من أن الجميع انصرف ، ثم خرجت من الدار جارية حافية القدمين تقصد تلك البقعة التى تعرفها جيدًا ، والتى حفرتها مع أخيها أمس ..

لون الغروب الأزرق يغلف المكان .. فى هذا الوقت بالضبط كانت منهمكة مع أخيها فى حمل القتيل .. واليوم ؟

إن الحفرة موجودة .. هل كانت بهذا الاتساع من قبل ؟

من الواضح أن هناك من أزال عنها طبقة التراب الكثيفة التى كانت تغطيها .. لكن الأمر يبدو وكأن إزالة الغبار تمت من الداخل ..

هذا هو ما توقعته .. لقد كان حيًا عندما دفناه ، وقد راح ينبش حتى أخرج نفسه .. لكن هذه الأمور يمكن تصحيحها .. لسوف تعود إلى أخيها وتخبره بكل شىء .. وهذه الليلة ينتهيان من هذا كله ..

هكذا فكرت فى اشمئزاز وهى تقف فى ضوء الغروب تتأمل المشهد ..

لكن .. صبرًا .. تكاد تقسم إنها ترى قدمين عاريتين فى هذه الحفرة .. ليست خالية .. بل إن هناك من يرقد فيها ، وإن لم يتم دفنه بعناية .. ولكن ..

هناك جسدان متجاوران !

ما معنى هذا ؟

دنت من الحفرة أكثر ..

إن ضوء الغروب الأزرق الخافت يجعل الرؤية عسيرة .. لهذا تنتظر أكثر حتى ترى ..

الآن تقبض على الغبار وتزيله عن الوجه الأول وهى ترتجف .. هذا الوجه .. هذا الوجه .. هذا الوجه ..

كما توقعت بالضبط ..

هذا الراقد فى الحفرة الآن ليس زوجها ..

إنه أخوها !

ملامح الرعب على وجهه تقول إنها لم تكن ميتة سهلة على الإطلاق ..

راحت تشهق محاولة أن تمنع الصرخة من أن تغادر فمها .. يجب أن تتماسك .. يجب .. يجب أن تفهم ..

هنا سمعت من يتنحنح من خلفها :

ـ « إن الحفرة تكفى ثلاثة يا (محاسن) !! »

عرفت الصوت .. نظرت للوراء فوجدت زوجها يقف هناك تحت الشجرة العتيقة ..

وكان يبتسم .. للمرة الأولى منذ عصر أمس تراه يبتسم ..



زنزانة خريولسن

-١-

نظرت إلى ساعتى .. من العسير أن تعرف فى هذه الحجرة إن كنا فى الليل أم النهار ، لكن ساعتى تقول إنها الثامنة صباحًا .. ليلة كاملة قضيتها فى المتحف الأسود ومن الغريب أننى لست منهكًا ..

قلت لـ (مازن) :

ـ « هذه القصة على كل حال يمكن تفسيرها .. الزوج لم يمت .. لم يمت جيدًا لو أردت الدقة .. وقد انتصر على الأخ ودفنه هو فى الحفرة ، ثم عاد ليصفى الحساب مع زوجته .. »

ابتسم ابتسامته الودود الشهيرة وقال :

ـ « هذا تفسير لا بأس به .. لكننا لم نفهم بعد كيف نجا من ارتطامه بالشاحنة ولا كيف شخص الطبيب وفاته ، ثم لم يجده على المحفة .. ثم كيف نفهم معنى حديثه عن الحفرة التى تسع ثلاثة .. »

فى حدة قلت :

ـ « الموتى لا يعودون للحياة إلا عندما تقوم الساعة .. لا تبن أية افتراضات على أسس غير هذه .. »

ـ « ثمة تفصيل آخر لا يعرفه سواى .. لقد قطع الأخ الرأس بعد رحيل أخته .. كان هذا على سبيل الانتقام !! »

هززت رأسى غير مصدق .. يصعب أن أتخيل الزوج يعيد تثبيت رأسه على كتفيه ثم يغادر القبر ليقتل الأخ ، ثم يعود لداره ..

قال (مازن) ضاحكًا كعادته :

ـ « كلانا لا يؤمن بصحوة الموتى من دون قيامة ، لكنى لا أعتقد أنك ترفض فكرة الأشباح التى عادت لتنتقم .. الأشباح التى اكتسبت وجودًا ماديًّا من الإكتوبلازم يجعلها لا تبدو كذلك .. لقد قتل (سليم) أو شبحه الأخ ودفنه ، ومشى متجهًا لداره شارد الذهن لا يعرف أين هو .. لم يصدق لحظة أنه شبح حتى دهمته تلك السيارة .. الحقيقة أنها لم تفعل شيئًا يذكر .. وفى المستشفى لم يعرف الطبيب أنه يفحص قشرة من الإكتوبلازم .. ثم فر الزوج وقد بدأ يستعيد توازنه .. كان يريد الخلاص من زوجته ، لكن ـ الأهم ـ كان يريد أن يثير ذعرها .. لقد عاشت عذابًا لم يرد فى الأساطير الإغريقية فى يومها الأخير .. »

قلت له فى ضيق :

ـ « اسمح لى .. أنت تبنى افتراضات .. لكن لا يمكن

البرهنة عليها .. أعتقد أنها مجرد قصة قتيل لم يكن كذلك .. »

لم يعلق واتجه نحو الواجهة التالية ..

قال (مازن) :

ـ « النوع التالى من الرعب هو نوع شهير جدًا .. ربما أقدم أنواع الرعب .. ألا وهو الرعب مما ينتظرنا خلف الباب المغلق ..

كان يقول هذه الكلمات وهو يقف جوار شظية صخرية هائلة الحجم يبدو كأنما انتزعت من جدار قديم ..

★ ★ ★

قال (مازن) :

الباب الذى أتحدث عنه لم يكن فى مصر .. لم يكن فى مكان تعرفه ..

الباب الذى أتحدث عنه لم يكن بابًا خشبيًا أو حديديًا ، بل كان أقرب إلى جدار سميك يهدم ولا يفتح ..

لكن الناس هناك كانوا يسمونه بابًا ..

★ ★ ★

كان هذا فى كهف قرب قرية فى (ويلز) ..

كان الناس يمرون جوار الكهف ، ويتحدثون عن (خريولسن) الحبيس هناك .. عن الساحرة التى أنجبته .. والتى أعدمتها محاكم التفتيش هناك .. وكيف دفنوها فيما يعرف بزنزانة (خريولسن) ..

هنا قاطعته فى دهشة :

ـ « لحظة .. (خريولسن) ! أنا كنت هناك ! »

نظر لى كأنما أنا أكذب وقال بشك :

ـ « أنت من دون غيرك يا دكتور ؟ وفتحت الجدار ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « ورأيت ما وراءه ؟ »

ـ « بالتأكيد .. كانت هذه أشنع خبرة واجهتها فى كل حياتى .. أحمد الله على أننى سأموت فتموت هذه الذكرى معى .. »

عاد يسألنى فى شك :

ـ « رأيت كل شىء ؟ حتى الـ ..... ؟ »

صحت فى عصبية :

ـ « لا تقل من فضلك .. دعنا نصغ إلى باقى قصتك لنرى إن كانت تختلف عن خبرتى .. »

عاد يقول :

ـ « عندما احترقت الساحرة أنذرت الناس بأن ولدها (خريولسن) سيعود بعد أعوام حين يفتح الزنزانة رجل أجنبى .. وما لم ينسه أحد هو أن المصائب لم تفارق القرية لحظة طيلة عمرها المديد ..

وبعد أعوام جاء مغامر إلى الكهف .. كان هذا بريطانيًا يدعى د. (هنرى لستر) .. فتنته الأسطورة وصمم على أن يجد رجلاً أجنبيًا يفتح تلكم الزنزانة ..

كانت فكرته أن يناول الضيف المطرقة ، ثم يطلب منه أن يفتح الجدار بنفسه لأنه ضيفهم ..

طبعًا ما كان الضيف الأحمق ليعلم أنه أول دم أجنبى يدخل الكهف منذ سبعة أجيال .. حقًا لم أتصور أنك كنت أنت هذا الضيف .. إن معلوماتى تقول إن .... »

* * *

هنا قطع (مازن) كلامه لأن ..

* * *

الخاتمة

كان هناك صوت سيارة من الخارج ..

صوت المحرك الدائر ثم صوت التوقف .. ثم صوت الأبواب تفتح ..

قال لى (مازن) فى عجلة وهو يخرج من المتحف :

ـ « إنهم جاءوا .. تعال يا د . (رفعت) فهناك أشخاص أرغب بحق فى أن تقابلهم .. »

قلت له وأنا أرمق باقى الواجهات :

ـ « لكن .. ألن نستكمل هذه الواجهات ؟ هناك .... »

ونظرت إلى نهاية القاعة .. كان هناك رأس .. رأس آدمى محنط موضوع فوق عمود كأنه نصب تذكارى .. ولسبب ما بدا لى مألوفاً إلى حد ما ..

عدت ألحف عليه :

ـ « وهذه الواجهة .. إن هذا الرأس يبدو .. »

قال وهو يقتادنى إلى الخارج ويدير المكتبة ليغلقها :

ـ « فيما بعد .. فيما بعد .. سنكمل المشاهدة بمجرد أن تقابل هؤلاء السادة . »

ـ « من هم ؟ »

نظر لى نظرة ذات معنى ، وغمغم وعيناه متسعتان فى خطورة :

ـ « فقط حاول أن تبدو طبيعيًا .. سأخبرك بحقيقتهم فيما بعد .. والآن انزل .. »

مترددًا نزلت فى الدرج الخشبى ، وأنا أتساءل عن كنه هؤلاء القوم .. ما معنى أن (لهم حقيقة ما) ؟ ما القصة التى يحملها هؤلاء ؟ فى الغالب هذه هى لحظة الحقيقة .. لقد انتهت سهرتى مع هذا الشىء .. نظرت للوراء فلم أر (مازن) يتبعنى طبعا ..

انفتح الباب وسمعت صوت طفلة تصيح .. ثم رأيت فى الضوء القادم من الخارج رجلاً وامرأة شابة وحقائب .. ثم لمحت الطفلة ذاتها وكانت تتواثب فى مرح .. كان ظلهم يمتد على الأرض مستطيلاً غامضاً كأنما جاءوا من كوكب آخر ..

لكن الدهشة لم تطل .. فقد أدركت أنهم طبيعيون جدًا ، وبدأت أفهم القصة ..

* * *

كنت الآن قد وصلت إلى حقيقة مفروغ منها : هذا الرجل ليس رجلاً .. سوف تشرق الشمس لأجد أنه لا وجود له .. لقد عشت هذا الموقف مراراً .. لكنى على الأقل أعرف أن قصصه حقيقية .. ثم كيف أتأكد من نظريتى هذه ؟ لا سبيل إلا أن أنتظر ..

* * *

الآن أرى الرعب فى عينى الرجل والمرأة .. والطفلة ذاتها كأنما رأت شبحًا ..

هتف الرجل :

ـ « من أنت ؟ »

ابتلعت ريقى وقلت فى كياسة :

ـ « أنا ضيف السيد (مازن) .. هل لى أن أسأل نفس السؤال ؟ »

صاح الرجل وهو يمسك بيد زوجته متوترًا متأهبًا للانطلاق كالسهم نحوى :

ـ « (مازن) ؟ (مازن) من ؟ »

الآن بدأت أجد شيئًا مألوفًا فى المشهد .. أكره أن أكون على صواب فى كل مرة .. لكن التفسير سيكون عسيرًا بعض الشىء ، فأنا الآن متسلل بلا إذن إلى دار هؤلاء القوم .. وكان من أنقذنى هو الزوجة التى قالت وهى تربت على كتفه :

- « إنه منهم يا (محمود) .. منهم .. لقد تكرر الأمر .. »

كور الرجل قبضته كأنما هو يمثل أحد أفلام (جون واين) ، الأحمق .. أنا لا أبدو تهديدًا لبعوضة ..

قلت له :

- « أتمنى أن تهدأ قليلاً .. تبدو لى عصبيًا لا يسعدك شىء فى الوجود إلا أن تهشم وجهى .. »

- « هو كذلك فعلاً .. »

قلت وأنا أجلس على أريكة هناك :

- « واضح أن هذا الموقف تكرر معك مرارًا .. يحدث كلما سافرت فى رحلة طويلة . أليس كذلك ؟ بلى ؟ وليس هناك من يدعى (مازن) هناك ؟ »

قالت الفتاة التى كانت أقرب إلى التعقل والهدوء :

- « (مازن أبو سيف) هو زوجى يا سيدى .. لكننا فى كل مرة نجد من يتحدث عن (مازن) الذى دعاه للبيت ، وأراه مجموعته من تذكارات الرعب .. »

- « والمتحف ؟ لا وجود له ؟ »

- « بالفعل لا وجود له .. يقولون إنه موجود فى غرفة المكتب .. خلف مكتبة جدارية عملاقة .. الحقيقة أنه لا يوجد أى تجويف خلفها .. لقد أزحناها وفحصنا المكان بعناية .. »

قلت وأنا أنهض وأداعب شعر الطفلة المذعورة :

- « هناك متحف أسود .. بالفعل هناك واحد ، فأنا لم أكن فريسة هلاوس بصرية بهذا التعقيد .. لكن ما يقودنا إليه ثغرة ما .. ثغرة فى عالم الواقع .. هى هناك وراء المكتبة لا يفتحها إلا مضيفى نفسه .. ويبدو أنه لا يكف عن استعراض مجموعاته كأى هاوى جمع تحف فى عالمنا .. حتى الأشباح تملك نقاط ضعف مثل البشر .. »

وهنا فقط استعدت ذكرى الرأس المقطوع الذى كان آخر ما رأيته فى المتحف ..

كان هو رأس (مازن) نفسه .. أعنى رأس من ادعى أنه (مازن) .. لقد تعجلنى فلم أستغرق الوقت الكافى كى أحفر الانطباع فى ذهنى ..

لقد ضم رأسه إلى مجموعته بكل رضا وسرور .. ولا شك أن المتحف يضم قطعًا أخرى منه حين كان حيًا ..

هو قال إنه جرب كل شيء في المتحف .. لو كانت قصته صحيحة فما من بشرى يمكن أن يمر بهذه الخبرات جميعًا .. إما أنه لم يعد بشريًا أو لم يكن كذلك منذ البداية ..

ثمة افتراض أكثر جرأة : لماذا لم أر الواجهة الخامسة ؟ هل الواجهة الخامسة هى تلك التى تحوى رأسه ؟ هل كان هو (سليم) نفسه ؟ لقد استبقى هذه الواجهة للنهاية باعتبارها سره الأخير .. والحقيقة أننى حين أستعيد قصته أتساءل : كيف عرف كل هذه التفاصيل ؟ لقد هلك (سليم) وهلك الأخ وهلكت الزوجة .. فكيف عرف هذا كله ؟ فى كل القصص السابقة كان هناك من يحكى القصة كاملة : المخرج .. الزوجة .. الصبى الذى قتله القطر .. الطبيب الذى فقأ عينيه .. فى هذه القصة بالذات بدا لى (مازن) كأنه هو الراوى كلى المعرفة Omniscient الذى يعرف كل شيء ويتواجد فى كل مكان .. يمكن أن يقص هذه القصة لو لعب دور (الشخص الثالث المحدود) .. أى لو كان هو (سليم) ذاته ..

قلت للزوج الذى بدأ يهدأ قليلاً :

ـ « هل كونت فكرة عما يحدث ؟ »

ـ « لا .. لقد طلبت رأى الكثيرين لكن أحدًا لا يعرف .. تكرر هذا السيناريو ثلاث مرات وأنت الرابع .. من الواضح أن هناك شبحًا يتسلى هنا .. يجلب عابرى السبيل ويقنعهم أنه صاحب المكان .. يدخن السيجار الخاص بى ويقدم لهم الشاى والشطائر من مطبخى .. يحكى لهم قصصًا حتى يأتى الصباح .. هو لا يفعل هذا إلا حين نسافر لفترة .. وتتم القصة ليلة عودتنا .. ذات مرة راقب رجال الشرطة البيت فى أثناء سفرى ، لكن ـ كما هى العادة فى تلك الأمور ـ لم يحدث شيء .. وقد افترضوا أننى مخبول لا أكثر .. أعتقد أننى سأبيع هذا المكان .. فلم أعد أتحمل .. »

وقفت أفكر حينًا .. ثم سألته :

ـ « أنا تحت تصرفك .. لو أردت أن تستدعى الشرطة لاتهامى بالتسلل إلى دارك فهذا حق .. »

قال باشمئزاز وهو يسترخى على أريكة ويفك ربطة عنقه :

ـ « لا شيء من هذا .. لقد فعلت هذا مرتين من قبل بلاجدوى .. انصرف من فضلك ولا تعد هنا أبدًا .. »

اتجهت إلى الباب شاعرًا بالامتنان .. فلا أريد أن أقضى بقية اليوم فى تفسير موقفى .. أدرت المقبض ووقفت أرمق الحديقة التى غمرتها الشمس وقلت :

ـ « والكلب ؟ »

- « كلهم يقول هذا .. لا يوجد كلب يا سيدى .. أنا أكره الكلاب .. »

وراح ينظر إلى السقف كمن انهارت كل آماله ..

هكذا أغلقت الباب ومشيت شارد الذهن .. مبلبل الفكر .. غير قادر على موازنة خطواتى بعد ليلة طويلة منهكة من سماع القصص الغريبة .. أمر بحوض أزهار (الدالكونيا) مودعًا ..

وفى سرى تمنيت لو أن هذه الأسرة اللطيفة تأخرت قليلاً .. كانت الواجهات عديدة ، ولكم اشتهيت لو سمعت باقى القصص .. مثلاً ما هو ذلك الكلب الأحمر ؟ ما سر اليد المبتورة ؟ ماذا عن الهيكل العظمى ذى الأنياب ؟

لكنى كنت أعرف أننى سأقابل (مازن) يومًا ما لنستكمل مشاهدة المتحف الأسود .. نعم .. بالنسبة لى كان ذاك الذى أمضيت معه أمسيتى هو (مازن) الأول . الحقيقى .. والأكثر تسلية ..

إنه يعرف عنوانى .. ويعرف كيف يكتب خطابًا .. وكيف يرسله..

لسوف يجدنى ..

عندها أريد أن أسأله أسئلة كثيرة .. أولها : من هو فعلاً ؟ هل استنتاجى صحيح بصدده ؟

إن قصته - بالتأكيد - لجديرة بأن تكون من قصص حلقه الرعب القادمة ..

* * *

كانت هذه حلقة الرعب السادسة ..

المزيد من (البورتامنتو) .. لكن حتى (البورتامنتو) - برغم اسمه المرعب - ينتهى ككل شىء آخر ..

والشىء كان ينتظرنى .. إنها قصة مقززة تحكى عن شىء ما .. هذا هو ما يمكن قوله عن الموضوع .. و ...

لكن هذه قصة أخرى .

د. رفعت إسماعيل

القاهرة



روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

المتحف الأسود

إنه المتحف الأسود ..
لا تقفوا على الباب مترددين
وجلين .. لا تؤخروا ساقًا وتقدموا ساقًا ..
لا ألوم كثيرًا من يفعل ؛ فليس المكان مما يناسب
الأطفال ولا الآنسات ولا الفتيان ولا .. ولا أي بشرى
فى الواقع غير العجوز (رفعت إسماعيل) ..
لكنكم ستدخلون على كل حال ، ولسوف ترون
ما رآه .. لهذا أتمنى لكم ليلة طيبة .. !



د. أحمد خالد توفيق

مطابع

الثمن فى مصر ٣٠٠
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة

العدد القادم
أسطورة الشىء